حمار من الشرق

محمود السعدني

حمار من الشرق

تأليف
محمود السعدني

هنـــداوي

حمار من الشرق

محمود السعدني

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٣٢٢٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ محمود السعدني.

المحتويات

سبحان الذي أعطى!	٧
الكفاية والعدل!	١٥
أعلى مراحل الاستحمار	٢٣
لك هادا ... والشاويش حمدان!	٣١
المجوس والجاموس!	٣٩
أكلنا هو نفطنا	٤٥
فخامة الجنرال إليكتريك!	٥٣
حمير ... ولكن كرماء	٦١
النشوء ... والانحناء!	٦٩
عن الخطط والأهداف	٧٩
المعرَّش ... والمكرَّش	٨٧
الحنجوري ... والباطنية	٩٥
كل يوم ... وتغيب	١٠٣
٣٠٠ مليون زلمة!	١١٣
المجنون ... وليلاه	١١٩
كوز المحبة انخرم ...!	١٢٥
الوعد والمكتوب ...!	١٣١
خرساء اليمامة!	١٣٧
أولاد كاليوني!	١٤٣

سبحان الذي أعطى!

أولَ مرة جئت فيها إلى باريس، تصورت أني قادمٌ إلى الفردوس؛ الشوارع من البلور، والأرض من الزجاج، وحيطان البيوت من ذهب، والحدائق من شجر الجنة. وتصورت النساء من جنسٍ آخر؛ الجلد زبدة، والدم قشطة، والكلام نغمٌ موسيقي، خليطٌ من أناشيد كاهن فرعوني، ومزامير داود، وتراتيل سماوية للشيخ رفعت. وتصورت نساء باريس بلا فضلات؛ لأن بطونهن بلا أمعاء، وأفواههن للهمسات والقُبلات، وليس للمضغ والطحن وازدراد الفول والكبة النية.

وتصورت أني سأجد في باريس سوقًا رائجة، فأنا شرقي، والشرق ساحر، وأنا أسمَر، والسَّمار مطلوب، ولا بد سأعثر على حوريةٍ آخر شخلعة وآخر دعدعة، والخدود تفاح، والشفايف عجمية، والعيون فناجيل شاي، والخَصر مخنوق ومزنوق، والصوت مبحوح ومجروح، نسوان سبحان الذي صوَّر والذي كوَّر! وسبحان الذي خلق الناس أشكالًا على ألوانٍ كأسنان العبد لله! يا قوة الله، لو التقيت ببنت من عائلةٍ فوشية أو بنت من قبيلة روشيه، فلا بد في فرنسا عائلات!

وحتمًا ولا بد البنت وارثة، ضياع تملك، سيارات تركب، بلاطي فرو تلبس، فرنكات كثيرة تحوز، والود ودي لو تعانقنا وتناغشنا، ويا سلام لو الهوا أصبح سوا؛ فتزوجنا وتناجبنا، وعشنا في التبات والنبات، وخلفنا صبيان وبنات، وربما أتحول إلى كونت أو فونت، وسيعوض الله صبرنا خيرًا، وسأعيد المجد الذي ولَّى، فأنا أيضًا من قبيلةٍ كان عددها يفوق عدد سكان أوروبا، وجَدي الأول كان له شرف الاشتراك في بناء سد مأرب، وجدي الثاني كان رئيس طاقم النجارين الذي صنع عرش بلقيس، وجدي الرابع سار على قدميه من جزيرة العرب إلى جزيرة شندويل بالصعيد غازيًا في سبيل الله، وكان يرحمه الله يعشق أكل الفول والبصل والمخلل، وجاءت منيَّتُه بسبب امتلاء بطنه، ربما، لأول مرة منذ ولادته!

ومن يدري، ربما كانت حكمة إلهية أنني اشتغلت في الصحافة، وأنني سافرت إلى باريس، وأنني سأصير ثريًّا ألمعيًّا لوذعيًّا يشار إليه بالحذاء! ونَذْر على العبد لله أن أقيم تماثيل للعائلة في السوربون وفي ميدان الكونكورد وفي مركز الباجور منوفية!

ولكن كيف الكلام والسلام والعبد لله يعرف مِن الفرنسية مقدار ما تعرفه أمي من آداب اللغة اليابانية! وأول الحب كلمة، وطريق الحب الملاغية، وعلى رأي الشاعر العربي: الحب همسة ثم لمسة ثم موعد فلقاء فكلام فغرام فمأذون فزواج ثم الذي منه!

وانا في الهمس ولا عصفور من عصافير الكناريا، وفي اللمس ولا نشَّال في الموسكي، وفي اللقاء ولا عزرائيل الموت، وانا في الكلام أعوذ بالله؛ في العربي بربند، في الفرنساوي أنا أبكم، ولكن من قال: إن الكلام ضروري والحكاوي لازمة! وعمنا شارلي شابلن مثلًا أدهش العالم بلا كلام، واشتهر بدون حاجة إلى استعمال اللسان، وانا في اللغة الصامتة ولا محمد علي كلاي في الوزن التقيل، وأحد جدودي كان من مواليد قرية الصامتة محافظة أسيوط! وأنا أصلح أستاذًا لآداب اللغة الصامتة في جامعة باريس.

ولكن المشكلة هل أستعمل الصامتة الفصحى أم الصامتة العامية؟ ولو أنني استعملت الصامتة الفصحى، فنهار أبويا أزرق عند الدكتور لويس عوض، ولو استعملت الصامتة العامية، فنهار أبويا أسود عند المجمع اللغوي.

وأنقذني من حيرتي مرور بنت لهلوبة ولا أرنب بري، شعنونة ولا قنفد في براري البصرة، بنت متحركة متكركرة متشنكرة، واتفضلي شاي، لا متشكر! وغمزت لها بعيني فلم تستجب، مسحت بيدي على صلعة راسي من باب التحية والسلام، فساقت التقل على العبد لله، وتصنَّعت الدلال، وتقصَّعت ذات اليمين وذات الشمال، ثم دارت ثم لفَّت، ثم أفلتت، ثم أدبرت، ثم أقبلت آخر حلاوة وآخر انسجام!

وانتهزت الفرصة فغمزت وهرشت، وإذا بالبنت الفرنساوية تطُب في غرام دباديب العبد لله! ودنت واقتربت وسألتني في دلال: هل أنت مريض يا مسكين يا عدمان!

قلت: حاشا لله وما بي إلا مرض حمَّى حبك، وحرارة الشوق إلى قربك.

قالت: ولكنك تكسِر عينك؛ وهذا دليل مرض العين، وتهرش رأسك؛ وهذا دليل على وجود قملة في شعرك!

قلت للست الغندورة الكركورة: أما الرمد، فأعوذ بالله، أما القمل فموجود في الشعر وبكثرة، وهو تراث في العائلة منذ العصر القملي الأول، ولكني غمزت لك من باب الغرام، وهرشت من باب التحية والسلام.

قالت: إذن أنت عاشق ولهان؟ قلت: وواقع لشوشتي في بحر الغرام.

وجرَّتني البنت من يدي جرةً قوية، فوقعت على الفسقية! وصرختْ: أيها الشرقي الطيب.

قلت: عفوًا يا سيدتي، أنا لست من الشرقية، بل من مركز الباجور منوفية، ومن قرية بهناس بالذات، وهي شيء مختلف عن بهناس البلد وبهناس المحطة، ثم أنا لست من النوع الطيب أو المكسور، ولكني فحل منوفي على كيفك، في العراك وفي الهراش أنفع، وعلى حلقات الغرام محسوبك ولا تايسون على حلقات الملاكمة!

وسحبتني البنت الحلوة وعكمتني كشرطي عاكم واحد صايع تحرِّي، وقالت: بنا أيها الغلبان العدمان نغزو باريس؛ نغزوها من اليمين ومن الشمال، ونغزوها من الخلف ومن الأمام، وهتفتُ مسرورًا مبسوطًا من سندبيس إلى باريس: سبحان الذي أعطى! البنت المضروبة اللهلوبة، اتضح للعبد لله أنها تلميذة في السوربون تتعلم، وتسعى للدكترة في علم الأجناس، وتستطيع بنظرةٍ أن تكتشف من سحنة البني آدم إذا كان أصله من العرعر أم من البربر، والبنت رقيقة وقطقوطة وسمباتيك، وتعشق الحياة والحب، وتموت في صنف الرجال.

وسحبتني كالجاموسة إلى الحي اللاتيني (كارتييه لاتان)، وفي مقهًى بسيط دخلنا، وفي زاويةٍ منعزلة جلسنا، وأكلنا صندوق بطاطس مقلية وكسرة خبز لا تصلح لسد رمق طفل من أطفال العروبة السِّمان.

قالت البنت الحلوة وهي تمضغ طعامها كالعصفورة الكركورة دون أن تفتح فمها، وهي مسألة عويصة؛ لأنني أحيانًا أرى أمعاء عويس ابن خالتي إذا هجم على مائدة الطعام! ولكن هذه البنت اللهلوبة تحرك أضراسها دون أن تفتح شفتيها، معجزة لا شك تفوق معجزة الأخوين رايت عندما انطلقا يحلقان في السماء!

المهم، البنت نظرت في وجه العبد لله، ثم حقَّقت ثم دقَّقت ثم حدَّقت، ثم واصلت التحقيق والتدقيق والنظرات، وخُيِّل إليَّ أنها اكتشفت أنني لم أغسل وجهي ذلك الصباح، فاعتذرت لها بأنني من أسرة مصرية لا يغسل أفرادها وجوههم إلا من مياه ترعة الزمر التي تتهادى بالقرب من الأهرام! ولهذا فإن أغلب أفراد عائلتي وجوههم لا يمسُّها الماء؛ والسبب أن مياه ترعة الزمر جفَّت منذ الأسرة الفرعونية الرابعة، ولم يعد فيها إلا طين وضفادع وبقايا أعشاب!

وتجاوزت البنت الحلوة المضروبة تفسيري المادي الجدلي لتاريخ الأسرة، ثم صرخت صرخةً مدويةً وقالت: أنت نادر أيها الإنسان.

قلت وأنا شديد التعجب: أنا نادر! من قال هذا الكلام! إنني من عائلةٍ تجيد عملية النسل وبوفرة، وستجدين في كل بلدٍ عربي عشرات من قبيلة السعدني، بعضهم في الوظائف، وبعضهم صياع، وبعضهم عنده فلوس وبعضهم عنده برد، وبعضهم يقيم في الفنادق، وبعضهم يقيم في السجون، ومن طنجة إلى صنعاء؛ ولهذا مدحنا الشاعر العربي الأموي بهذا البيت المشهور جدًّا: «اكتسبتم شرفًا على شرف بنو سعدان»، وكان يقصد أننا — بهذا الانتشار الخرافي على الأرض العربية — قد حققنا الوحدة دون الانتظار لإعلانها رسميًّا من جانب الحكومات!

أما الشرف الثاني الذي اكتسبناه، فهو هذا التنوع الكمي والكيفي لأفراد العائلة، فمنهم عساكر شرطة وموظفو ضرائب وقضاة محاكم ونشَّالون وقطَّاع طرق، وهذا يعني أن العائلة تمثل تحالف قوى الشعب العامل، فالكل يعمل ويسعى على رزقه حسَب التساهيل والأحوال، ومن حق عائلتي الآن أن يكون لها منبر أو تنظيم أو حزب، لا شيء يُهِمُّ؛ على رأي إحسان عبد القدوس.

وصرخت البنت الحلوة وقالت: عظامُ وجهك أيها الرجل.

قلت: ما لها عظام وجهي؟ إذا كانت هناك بعض الانتفاخات أو بعض النتوءات فهذه من آثار المعارك الشهيرة التي خضتها؛ دفاعًا عن حرية الرأي ضد بعض أصحاب المطاعم الجشعين الذين يصرُّون على تحصيل ثمن وجبات الطعام!

وتأوهت البنت الغندورة وقالت: أنا أدرس السلالات وعلم الأجناس، وعظام وجهك تؤكد أنك ربما كنت الرجل الوحيد الباقي من العصر الحميري!

وطق شرار الغضب من عيني وقلت في ثورةٍ حقيقية: العصر الحميري!

قالت: نعم، أنت بالطبع سمعت عن العصر الجليدي والعصر الحديدي، هناك أيضًا العصر الحميري؛ حين كان الإنسان والحمار سواءً بسواء، ورغم أن علماء الأرض نقبوا كل شبر وفتشوا كل ركن، وقلبوا الأرض والرمل ومياه المحيطات، إلا أنهم فشلوا في العثور على جثةٍ واحدة من العصر الحميري، ثم ها هي الصدفة السعيدة تسوق في طريقي بجثةٍ حية ونموذج متحرك من بقايا العصر الذي ضاع …

وانفشخ فمي عن ابتسامةٍ تهكُّمية عميقة، وقلت: عيبكم أيها الفرنسيون أنكم تدمنون القراءة، ولكنكم لا تنظرون في الواقع الموجود في الحياة، الشخص منكم يتناول إفطاره وعينه على سطور الجريدة، ويده شغالة على ودنه؛ من الطبق إلى فمه، وأحيانًا من الطبق إلى منخاره.

وسر الأبدية أننا دائمو التحديق إما تحت وإما فوق! بعضنا ينظر تحت قدميه في الطريق؛ ليقرأ قصة الحياة مكتوبةً على الأسفلت، أو بحثًا عن فرنك سقط من جيبٍ مثقوب، أو عقب سيجارة لم تأكله النار الواقعة، وبعضنا ينظر فوق باحثًا عن القوة الأعظم؛ طالبًا منا في أدبٍ عظيم: عشا الغلابة عليك يا رب!

وتجاوزت البنت المضروبة فلسفاتي وسنكحاتي وقالت: أسنانك أيها الرجل اللُّقطة، قلت: وما لها أسناني هي الأخرى؟! إذا كنتِ تقصدين السوس الذي ينخر فيها، فهذا بسبب قفزي المستمر من صنف السجاير إلى آخر، وانا اتعلمت من البداية على السجاير الهلب، ثم قفزت فجأةً إلى الكنت والروثمان؛ مما كان سببًا في اضطراب أسناني وتهيُّج السوس عندي، أما إذا كنت تقصدين هبابها وسوادها، فهذا بسبب تعصبي ضد الغرب ومصنوعات الغرب، فأنا لا أستعمل فرشاة أسنان، وأيضًا لأنني لست من السلف الصالح، فأنا لا أستعمل المسواك، ولكني رجل عملي أستخدم عيدان الكبريت، ولما كانت صناعة الكبريت في العالم العربي قد تطورت كثيرًا، وبدلًا من صنع العيدان من فروع الشجر صاروا يصنعونها من الجِلَّة؛ أقصد من روث البهائم، أقصد، أيتها الست الفرنساوية، من تواليت البهائم ولا مؤاخذة!

قالت وهي تدون بعض العبارات على الورق: أنيابك بالذات تؤكد نظريتي تمامًا، وأنك من العصر الحميري على وجه التحديد، ومن أكَلة البرسيم!

قلت وأنا أضحك على خيبة الست الفرنساوية: وهل في ذلك شك؟ إنني منذ ولدتني أمي وأنا نازل أكل في الملوخية والخبيزة والسبانخ، كما أني أيضًا من أنصار الفجل والجرجير والكرَّات، وكلها منتجات برسيمية!

قالت: إذن نظريتي صحيحة.

قلت: بدون شك، لولا حكاية العصر الحميري؛ فهي ليست على ما يرام أيتها الست الخواجاية.

قالت: اسمع، أنا متأكدة مما أقول، نظرياتي في علم الأجناس صائبة ولا تخيب، المهم الآن انتهاز الفرصة، فأنت موجود على قيد الحياة، وأنا أدرس عصرك وأصلك وفصلك، ولكن شكلك يوحي بأنك ستموت عما قريب؛ ولذلك يجب المحافظة عليك؛ ولهذا أيضًا أدعوك الآن إلى بيتي، فلا بد من المحافظة عليك بأي ثمن وبأي وسيلة وبكل سبيل.

وقلت للست الغندورة: وهل في بيتك مستشفى وأدوية وحكيم وفيتامينات تقوية وصودا وراوند؛ لزوم انتظام الهضم وضبط الطبيعة ولا مؤاخذة؟

وردَّت البنت المضروبة: المسألة ليست محتاجة إلى مستشفى ولا دواء، المسألة وما فيها أريدك معي في البيت؛ كي أدخل معك في الفراش، قلت: في الفراش! كده مرة واحدة! قالت: نعم، فقلت: عظيم، ولكن بشرط؛ أن يكون هناك كاسات هواء لزوم ظهري، ولزقة أمريكاني لزوم ضلوعي، وكافور للدهان وحزام صوف؛ كي ألف به جسمي.

قالت: لا شيء من هذا كله أيها الحمار، لا شيء على الإطلاق، وكل ما هناك أنني أريد منك طفلًا …

وقلت للبنت الغندورة الكركورة: يا عيب الشوم، تريدين الزواج مني وأنا رجل ذهبت مع الحجيج إلى بيت الله، ثم إني متزوج من بهانة بنت الأشمر، وعلى سنة الله ورسوله، كما أنني صاحب بنين وبنات. وضحكت البنت الغندورة فخرج نور من بين أسنانها، وعزفت فرقة موسيقى وترية من حلقها، ثم كركرت وقالت: وأنا فقط أريد ولدًا، ولكن لم أفكر في الزواج بك.

فقلت للبنت الغندورة: يا قوة الله! تريدين ولدًا سفاحًا من العبد لله؟ وهَبي أني وضعت لوحًا من الثلج على ضميري، وعصابة سوداء على ذقني، وقطعت تذكرة ذهاب بلا عودة لشرفي، وأنني رضخت وأذعنت لمشيئتك، وأنني وهبتك ولدًا، فما هو موقفك من الجيران وكلام الناس؟ وهل ستزعُمين أنه لقيط عثرتِ عليه عند باب أحد المساجد؟ أم ستقولين: إنه ابن أختك المسافرة لبلاد تأكل الثعابين؟ ثم ولنفرض أن بوليس الآداب تحرَّى وشدك على سجن الاستئناف، ماذا سوف تقولين للقاضي وللبيه المأمور والبيه السجَّان؟

قوَّست البنت حاجبيها وقالت في اندهاشٍ وارتعاش: ولماذا يحدث هذا؟ ألأني رُزقت بغلام؟

قلت: نعم وألف نعم، ولو حدث مثل هذا لواحدة بنت مثل حضرتكم في محافظة أسيوط، لقتلوها وشربوا من دمها، ولو حدث مثل هذا لبنت من مركز إبشواي محافظة الفيوم، لقتلوها فقط.

وقالت البنت الكركورة: عندكم شيء وعندنا شيء آخر؛ عندنا كل شيء ممكن وكل شيء مباح، وفي شهادة الميلاد اكتب اسمه جون واسم أبوه لاشيء، وتتعهده الحكومة إذا عطس وإذا برد وإذا — لا قدر الله — أصابته نزلة معوية من النوع الحاد، وهو في المدرسة بالمجان، وفي الجامعة أهلًا وسهلًا وفي العمل، وكل واحد حسب الذكاوة والاجتهاد، وقد يصبح يومًا رئيسًا للوزراء أو رئيسًا للدولة أو فنانًا أشهر من شارع الشانزليزيه!

قلت: يا أرحم الراحمين ارحمنا، بلادكم بطَّالة وعيشتكم حرام، ومصيركم أسود من قرن الخرُّوب، وإذا كانت شوارعكم مبلطة وأنواركم ملعلطة، وأتوبيساتكم خالية وعمارتكم

عالية، فغاية الأمر أن الله يمهل ولا يهمل، وغدًا سيطويكم الطوفان أو تأكلكم الدودة أو يسلط عليكم من لا يرحم، ولا يذر على الأرض من الكافرين إنسانًا.

وقالت البنت اللهلوبة: ما رأيك؟

قلت: في إيه؟

قالت: أريد منك ولدًا، والاحتفاظ بجنسك واجب، وأنت الحمار الوحيد الباقي من العصر الحميري، ولو حدث لك حادث، لا قدر الله، لضاعت من تاريخ البشرية حلقة هامة، ولعلها من أهم الحلقات.

وقلت: على رسلك أيتها البنت الجهولة، إذا كنت تُصرين على أنني من العصر الحميري، فالعصر الحميري موجود الآن وبخير، وكل عائلتي في مركز الباجور منوفية أحياء يُرزقون، والخالق الناطق على هيئتي وشاكلتي، ثم هناك مئات وألوف وملايين مثلي منتشرون في الأرض.

قالت: أنت تبالغ، ولا أظن أن أحدًا مثلك موجود على ظهر الأرض الآن، والعلماء منذ مئات السنين ينقبون الأرض وينبشون القبور؛ بحثًا عن حمار واحد من ذلك العصر، ولكن دون جدوى، وها أنت الآن بعظمك ولحمك وشحمك تسعى بيننا في الأرض، إنني أرتجف من شدة الرعب، وأخشى الآن أن يمر عالم من العلماء فيقع بصره عليك فيستدعي البوليس ويخطفوك مني، وربما وضعوك في متحف اللوفر، أو حددوا إقامتك في مستشفى سان مارك!

وقلت وأنا أنفخ من شدة الغيظ: يا سبحان الواحد القهار! أقسم لك برأس جدي الشيخ معوض أن العصر الحميري إياه قائمٌ ومنتصب، والحركة فيه الآن على قدم وساق، اخطفي رجلك، أيتها الصبية، إلى أي بلد في العالم الثالث أو حيث تعيش أسرتنا، وستجدين ألوف الحمير مثلي؛ تأكل وتشرب وتعمل وتقبض وتسعى وتنام، وستجدين أغلبهم على الكراسي وفي المناصب؛ فمنهم زعماء، ومنهم وزراء، ومنهم علماء أيضًا، وهذا هو العجب العجاب.

وشهقت البنت الحلوة وقالت: علماء! أصدِّقُ كل شيء إلا هذا.

قلت: ما أقوله هو الصدق بعينه، ولكي أزيدَكِ علمًا أقول لك: إن عدد حمَلة الدكتوراه في بلادنا أكثر بكثير من حملة الدكتوراه في باريس.

قالت: هل عندكم علماء في الذرة؟

قلت: نعم، ولا، نعم إذا كان المقصود هو الذرة التي هي من فصيلة الشعير والحنطة، ولا؛ إذا كنت تقصدين الذرة التي كانت لا تتجزأ ثم جاء أينشتاين ليثبت أنها تتجزأ، ثم

جاءت المصانع فجزَّأتها بالفعل، وجربتها على البشر في اليابان فمات نصف مليون في لحظة؛ هذه الذرة لا نعرفها ولا نسعى إلى ذلك، وإن كنا في الحقيقة والتاريخ لدينا علماء في الزُّغطة.

قالت: وما هي الزغطة؟

قلت: هذا علم فوق مستواكم، والسبب أنكم تأكلون المسلوق، ونحن نأكل الملفوف والمكبوس والمغموس والمعفوص أيضًا.

قالت البنت وقد سرحت: يا للهول، إنكم أغرب مما كنت أتصور، وهذا يدعوني إلى أن أتمسك بك أكثر، ولا بد أن يكون لي منك طفل يخلِّد سلالتك المنقرضة، ويحيي ذكرك الذي ينبغي أن يدوم، انهض أيها الحمار الخالد واتبعني، وشدتني شدةً قوية فوقعت على الإفريز وانكسرت ساعتي الإبريز، وانطلقت بي إلى حيث تعلم ولا أعلم!

١ / ٩ / ١٩٨٩م

الكفاية والعدل!

وركبنا ترامًا تحت الأرض، تخيلوا ترامًا يمشي تحت الأرض وفوقنا البيوت والسيارات والبني آدمين، واندهشت البنت لدهشتي فقالت: ألا تحفرون الأرض في بلادكم؟ قلت: نعم نحفرها باستمرار، وستجدين في كل شارع ألف حفرة وحفرة، واسمها العلمي مطبَّات؛ ولذلك ستجدين في كل مدينة مائة ألف أعرج وأعوج! ولأنها حفريات أثرية، فنحن نحافظ عليها بكل ما نملك، ولدينا كل المخترعات وكل المنتجات، ولكنها في بلادنا تختلف تمامًا عما هو موجود في بلادكم.

مثلًا عندنا تليفونات لا تتكلم، وعندنا تروماياتٍ لا تسير، وعندنا جرائد لا تنشر ما تريد، ولكنها تنشر ما يريده البيه الرقيب أحيانًا والبيه المعلِن أحيانًا، وعندنا حكومات يخدمها الجمهور، ولكنها لا تخدم أحدًا، وعندنا أحزاب تتاجر بالكلام والبرامج والوعود، وعندنا شرطة لا تقبض على الجناة ولكن على الضحية، وعندنا مائة ألف دكتور في العلوم والفنون والآداب وتسعون مليون أميٍّ، وعندنا جاموس على قفا من يشيل وبقر على ودنه، ومع ذلك فكيلو اللحم بثلاثمائة ليرة في بيروت وعشرة جنيهات في القاهرة.

قالت البنت وهي مندهشة: والجو هل هو جميل؟

قلت: حدِّثي عن الجو ولا حرج ... عندنا جو منور والعقل ضلام، على رأي عمك بيرم التونسي، وعندنا حرارة يا خسارة، وبرود أجسام، وألف مليون زلمة، لكن أغنام.

قالت: جعلتني أشتاق لرؤية بلادكم، ما أعظم أن يعيش الإنسان في عصرٍ منقرض! لو رزقني الله بطفلٍ منك سآخذه إلى موطنه الأصلي؛ ليرى العصر على الطبيعة.

قلت ونحن جلوس معًا في شقتها، أقصد في حجرتها: هل هذه الحجرة فقط هي كل ما تستأجرين؟

قالت: بالطبع، فأنا لا أحتاج لأكثر من هذا ... غرفة كبيرة، حمام في الركن، مطبخ في الركن الآخر، والسرير هناك، ومقعدان لزوم الجلوس والمسامرة.

قلت: وكلكم كذلك؟ قالت: بالطبع، باريس مكتظة بالناس، وكل فرد ولا بد أن يكون له مسكن، سألتها: لا بد؟ قالت: بالطبع لا بد وألف بد، هتفت من شدة السخط: يا سبحان الله! أنتم أيها الخواجات تصنعون قوانين ما أنزل الله بها من سلطان. عندنا في العصر الحميري فرد واحد يسكن في قصر، وعشرة يسكنون في حجرة، وفي الحجرة الواحدة زوج وزوجة وأولاد، وسعداء الحظ الذين لا يملكون حجرة، أمامهم الأرصفة؛ ففيها متَّسع للجميع، وأنت تعرفين الرصيف بالطبع، والجو في بلادنا حارٌّ جاف صيفًا، وما أحلى البرطعة على الرصيف في ليالي الصيف!

وقالت البنت: ما أحلى النوم على الرصيف! فهؤلاء يستمتعون بحريتهم أكثر بالأرض من تحتهم والسماء من فوقهم، فلا جدران ولا سقف، هل هم الهيبيون؟

قلت: هم رصيفيون، وهم سبقوا الهيبيين بكثير، الفرق الوحيد أن جماعة الرصيفيين فعلوا ذلك رغمًا عنهم، بينما الهيبيون فعلوا ذلك بمزاجهم، ولكن الوسائل واحدة؛ الأسمال البالية، والسجاير المعطرة، والفلس الدائم، وفقدان الوعي، وعدم المشاركة في أي شيء؛ كما أن النتيجة واحدةٌ؛ الضياع، ولا شيء إلا الضياع.

قالت: هم فلاسفة إذن؟

قلت: في بلادنا نطلق عليهم لقب مفالسة، ومفردها مفلس، ومصدرها إفلاس!

قالت: إذن كلكم في بلادكم تستمتعون بهذه الحرية؛ كلكم أحرار، يا للحظ السعيد!

قلت: للأسف لسنا جميعًا، ولكن البعض منا فقط؛ لأن النوم على الرصيف يحتاج إلى عضلاتٍ لكي تدافع عن رصيفك، ويحتاج إلى نقودٍ لرشوة عسكري الدرك.

قالت: عسكري الدرك! وما هو عسكري الدرك؟ قلت: اختراعٌ حميري ربما لم تصلوا إليه بعد، ففي كل شارع في بلادنا عسكري درك مهمته حماية أصحاب المساكن من أصحاب الرصيف، ولكنه فقَد الاهتمام بوظيفته مع مرور الزمن، وتفرَّغ لبيع الرصيف لمن يرغب من المفالسة.

سألتني: طيب، والذين يرفضون الدفع؟

قلت: هؤلاء انسحبوا في هدوءٍ إلى المقابر.

قالت: ماتوا؟

قلت: بل هم أحياءٌ يرزقون، ولكنهم ذهبوا وسكنوا المقابر.

قالت: مع الموتى؟

قلت: بالضبط، الأم تطبخ طعامها فوق شاهد المقبرة، ويموت الشخص الذي يسكن المقبرة فينزل عدة درجات ليستقر تحتها!

قالت: ما أعمق حكمتكم! وما أعظمكم من حكماء! ألغيتم الموت عندما سكنتم مع الموتى، أرجوك لا تصرح بهذه الأسرار لأحدٍ غيري ... سأهزُّ العالم عندما أصدر كتابي عن العصر الحميري، سأُحدث تحولًا في العالم أخطر بكثيرٍ من التحول الذي أحدثه أينشتاين بنظرية النسبية، وسأدخل التاريخ بنظرية الحميرية.

قلت للبنت الجهولة: دخلنا مرةً أخرى في النظريات؛ بينما أنا أتكلم عن حقائق موجود بينك وبينها ساعتان بالطائرة إلى المغرب العربي، وأربع ساعات إلى ليبيا، وسبع ساعات إلى الخليج ... هل تسمعين بالفجيرة؟

قالت: فواجرا؟ تقصد كبد الأوز البري؟

قلت: أنا لا أقصد الفواجرا، أقصد الفجيرة على شاطئ الخليج.

قالت: وماذا؟

قلت: بها كل متناقضات العصر تجسدت وتبلورت على أرضها، فيها ألف مواطن ومائة مليون دولار ميزانية كل عام.

قالت: لا بد أنهم أثرياء وسعداء.

قلت: بل هم أثرياء وتعساء.

قالت: كيف؟

قلت: عندهم فلوس وليس عندهم مجتمع، ولديهم رأس مال ولكن ليس لديهم أدوات إنتاج، ورغم المال والغنى فلديهم فقراء ولا فقراء الهند.

قالت: وهل أنت من الفجيرة؟

قلت: لا، أنا من الفقيرة، أقصد من دميرة.

قالت: وهل دميرة أسعد من فجيرة؟

قلت: ليست أسعد ولا أسوأ، ولكن الفجيرة فيها غنًى وفيها فقر، بينما الدميرة فيها فقر وفيها أفقر، ومركز دميرة مساحته أكبر من مساحة الفجيرة عشر مرات، ومع ذلك فعلى رأسه عمدة يأكل يومًا ويصوم عدة أيام، ويلبس مرةً ويتعرى عدة مرات.

قالت: ولماذا لا يأخذ معونة من الفجيرة؟

قلت: وكيف يأخذها وهو لا يستطيع السفر إلى هناك، لأن السفر إلى هناك يحتاج إلى تأشيرة وإلى كفيل؟ وحتى عندما يأتي أهل الفجيرة إلى بلادنا لا يذهبون إلى مركز دميرة،

ولكنهم يذهبون إلى ملهى البجعة وكازينو الليل، قالت: الليل؟ ذكرتني بالليل وما في الليل، فهيا ننعم بالليل وما في الليل أيها الحمار الطيب.

وفي الليل قالت: ما مكان بلدكم على الخريطة؟ قلت: لا مكان لها على الإطلاق، فهي موجودة وغير موجودة، وأهلها أحياء وغير أحياء، وأهلها جميعًا من أبناء العصر الحميري؛ كما يحلو لحضرتك أن تطلقي عليه، قالت: غريبة! لم أكن أعلم أن هناك بلادًا من العصر الحميري لا تزال تحيا في القرن العشرين.

قلت: ومن قال لك إنها تحيا في القرن العشرين؟ ربما تكون في القرن العشرين قبل الميلاد، وربما تكون في القرن العشرين قبل التاريخ، وقبل الجغرافيا وقبل علوم الجبر والحساب، ومع ذلك فالأحوال ليست سيئة إلى هذا الحد، والأمور ليست متدهورة إلى هذه الدرجة، والحياة ليست هكذا ظلامًا في ظلام كما كانت الدنيا في البدء.

قالت: إذن لديكم نقط مضيئة وإنجازات رائعة؟ قلت: بالطبع.

قالت: حدِّثني عنها أرجوك، فلا بد أن إنجازاتكم الحميرية فاقت كل وصف.

قلت: عندنا اختراعات لا أظن أن مثلها عندكم، ولا أظن أنكم سترون مثلها عما قريب.

قالت: اضرب مثلًا، قلت: لقد حدثتك من قبل عن اختراع عسكري الدَّرَك الذي كانت مهمته في الأصل حماية أصحاب المساكن من أصحاب الأرصفة، ثم نسي المهمة فتفرغ لبيع الأرصفة. وعندنا اختراع اسمه المخبر، وهو جدع طويل وعريض، كف يده مثل المطرقة، إذا لكش به رجلًا على قفاه انكفأ الرجل على وجهه، وإذا لكشه على وجهه انكفأ الرجل على قفاه، إنه التجسيد الحي لشعار الكفاية والعدل؛ يكفيه على وجهه؛ وهذه هي الكفاية، ويعدله على قفاه؛ وهذا هو العدل، ومهمته السعي في الليل يجوس خلال الديار، يعكم كل من يلقاه في الطريق؛ خصوصًا إذا كان من النوع المتقمل أو المتأمل؛ فالأول جربان، والثاني سرحان. ثم هو حريص على أن يعكم أي امرأة في الطريق بعد العاشرة مساءً، حتى لو كانت في طريقها لشراء دواء لابنها المصدور، أو رغيف لابنها الجائع، فالشرف فضَّلوه على الأدب، والأدب فضلوه على العلم، والأمن فضلوه على الجميع!

وهو في آخر الليل يسحب صيده؛ عيالًا يمارسون أعمالًا حرة، ورجالًا بلا عمل، وأعمالًا بلا أمل، وأفندية بلا نفوذ أو فلوس، ويربِط الجميع في حبلٍ؛ تعبيرًا عن اتحاد قوى الشعب العاطل، ثم يسحب الجميع إلى الحجز، هل تعرفين الحجز؟

قالت: بالطبع أنا أعرف الحجز، إذا كنت مسافرًا فلا بد أن تحجز مكانًا، وإذا أردت أن تدخل المسرح فلا بد أن تحجز مقعدك قبلها بعدة أيام.

قلت: لا، ليس هذا هو الحجز في بلادنا؛ الحجز في بلادنا شيء مختلف، الحجز في بلادنا غرفة بلا باب ولا شبَّاك، عارية تمامًا، أرضيتها أسفلت، وحيطانها زفت، وفي كل ركن جيش من الأكلان؛ وهو يشرب دم البني آدم ولا يشبع، ويأكل لحمه ولا يبشم. وفي هذا الحجز يمكن لأي عسكري شرطة أن يلقي أي مواطن عددًا من الأيام، مع أننا جميعًا — أبناء العصر الحميري من المحيط إلى الخليج — نعيش في ظل سيادة الأخ العزيز؛ القانون!

قالت البنت وهي تتلوى: ولكن كيف تسير الأمور هكذا وعندكم قانون؟

قلت: لا بأس، ففي بلادنا كل شيء ممكن وكل شيء جائز وكل شيء معقول، والحجز موجود، والقانون موجود، وبينهما تعايش سلمي! وهما يسيران على خطين متوازيين ولن يلتقيا ... القانون في الشرق، والحجز في الغرب، والناس في بلادي لا تغضب، ولا تأسف، ولا اعتراض لديهم ولا مانع، فكل ما خلق الله له حكمة؛ حتى السجن والظلمة والكي بالنار.

قالت وقد بدا الحزن عليها: إذن الحجز هو السجن؟

قلت: بالعكس، السجن شيء، والحجز شيء آخر؛ فالسجن من اختراعاتكم؛ لأن السجن اختراع حضاري؛ فالسجَّان مسئول عن طعام المسجون وعن علاجه وعن حياته، وعن يوم محدد لإطلاق سراحه، ولكن الحجز اختراع حميري؛ فلا أكل ولا كساء ولا علاج ولا إفراج أيضًا، إلا إذا رقَّ قلب حضرة البيه المأمور والبيه الضابط والبيه المخبر.

قالت وقد بدا عليها الأسف: طيب، وإذا لم ترقَّ هذه القلوب جميعًا ومات الرجل المسكين في الحجز؟

قلت: ولا حاجة، الله جاب، الله خد، والموت حق، وهو مكتوب على الجبين، ولكل أجلٍ كتاب، والذي يموت في الحجز كالذي يموت في الوجد، كلاهما مات عندما تلقَّى استدعاءً من السماء، فلا العشق مسئول، ولا حضرة الضابط مسئول، فأقدارنا بيد السماء القاسية يا نهر البنفسج؛ على رأي عمنا زكريا الحجاوي طيَّب الله ثراه.

قالت: وهل مات زكريا الحجاوي؟

قلت: البقية في حياتك.

قالت: وهل مات في الحجز؟

قلت: بل مات في الدوحة، وبعد أن داخ السبع دوخات.

وبدا عليها أنها لم تفهم وإن كان الحزن قد بدا على وجهها بشكل أوضح، فقلت لها: لا تحزني على عمك زكريا؛ لأن الموت عندنا غير الموت عندكم، فإذا كان الموت عندكم هو نهاية لحياة هي في الأصل جميلة ولذيذة، فالموت عندنا هو خلاص من حياةٍ هي في الواقع

تأديب وتهذيب وإصلاح؛ ولذلك لم نحزن لموت عمك زكريا الحجاوي؛ لأن الميت ما أسعد حظه! والحي يا أسفى عليه!

تمطت البنت ثم تنهدت ثم عطست ثم كحَّت، ثم قالت في صوت مبحوح مسلوخ: يا لك من شقي؛ جعلتني أسرح خلفك في القرون السحيقة، وأخذتني من يدي في جولة رهيبة عبر دروب مدن دالت وشوارع اندثرت، أجلستني مع أصنافٍ من البشر انقرضت، ولكنك على أي حال أشهد لك بأن روحك خفيفة، ودمك أخف من روحك، وعقلك أخف من الجميع.

قلت للخواجاية الدلوعة: كلامك معقول وقولك مقبول، لولا أني أختلف معك في شيءٍ واحد؛ فأنا بالفعل روحي خفيفة ودمي أخف، ولكن عقلي خفَّ وشفَّ حتى اختفى تمامًا وصار بلا وجود. والحق أن عقلي معذور يا حضرة البنت الحلوة؛ لأن الأمور في العصر الحميري تجعل العقول تختفي وتزول. وقالت البنت مستنكرةً: ولماذا؟ أنت حمار وتعيش في العصر الحميري، فلماذا الغضب والاحتجاج؟

قلت: هذا صحيح يا أيتها البنت الفرنساوية، ولكن الأمر المحير أنني ما دمت حمارًا والكل حمير والعصر أيضًا حميري، فلماذا يكون بيننا المدير وبيننا الوزير، ومنا السفير ومنا الفقير، ومنا الثريُّ الأمثل والفقير الأحول، وفينا المحتاج ومدير الإنتاج؟ هل دخلت يومًا حظيرة حمير فوجدت أحدهم لا يجد تبنًا والآخر يبعثر تبنًا وشعيرًا على صنف الأتان؛ وهي أنثى الحمار؟ هل وجدت حمارًا صاحب عمارة وكل السكان حمير؟ هل رأيت حمارًا مسجونًا وحمارًا سجَّانًا في أي إسطبل أو في أي موقف حمير؟

سرحت البنت وهمست: يا للأعاجيب! إن ما تقوله صحيح، لم أشهد في حياتي حمارًا يركب أو يأمر حمارًا، ولكن الحمير في الهوى حمير، وكلامك هذا يجرنا إلى سؤالٍ آخر؛ هل لديكم قضاء كما لدى الآخرين؟

قلت: يا سيدتي كل شيء موجود وكل شيء حاضر، وإذا كان لديكم قضاء فلدينا قضاء وقدر، وإذا كان لديكم حكومات فلدينا عكومات، مهمتها عكْم كل حمار ينهق في وجهها أو يرفس في ظهرها! ثم لدينا اختراع حكومي لا أظن أن أحدًا قد توصل إليه؛ ففي بلادنا لا تسأل الحكومة المواطن كيف يحيا وليس لديها أي اهتمام بالحمار المواطن ما دام يعيش، ولكن إذا مات أي حمار جربان أو عدمان، نشطت جميع أجهزة الحكومة تسأل وتدقق وتفتش وتحقق؛ لتعرف كيف نفَق الحمار، وسيحضر على الفور مفتش الصحة وضابط المباحث وعشرة من المخبرين الكرام.

سألتني البنت: وما السبب؟

قلت: لأن المواطنين الحمير في بلادنا كلهم متهم حتى تثبت إدانته.

وقالت: عندنا موجود أيضًا مع فارقٍ بسيط؛ هو أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

قلت: نعم أعلم ذلك، ولكن هذا مبدأ لا يصلح للمجتمع الحميري.

قالت: وعلى ذلك فالحياة قاسية والمعيشة لا تطاق؟

قلت: بالعكس؛ فالحياة آخر سبهللة وآخر صهللة، فالناس تتكاثر كالدبان وتتوالد كالدود عن طريق الانقسام، والشمس مرعرعة، والسماء صافية، والجو آخر حلاوة وآخر طلاوة، والناس آخر رضا وآخر انسجام، واللي مكتوب على الجبين يا قلبي لازم تشوفه العين.

قالت: إذن فأنتم مبسوطون مسرورون وآخر مزاج وانشكاح.

قلت: تمام.

قالت: هذا إذن يثبت أنكم أنقياء، لم تخالط دماءكم أيةُ عناصر غريبة، فلا هكسوس ولا تتار ولا فرس ولا رومان ولا أتراك ولا جريج استطاعوا التأثير فيكم.

قلت: بالعكس، بل نحن الذين أثرنا فيهم، وكانوا يأتون إلينا في البداية مختلفين تمامًا، ولكنهم في النهاية يخرجون حميرًا بإذن الله.

قالت: لو صح كلامك لصار هذا كشفًا تاريخيًّا عظيمًا، قلت: هناك مثل واضح يثبت صحة ما أقول، عندك الأتراك مثلًا، عندما جاءوا إلينا بقيادة عمك سليم كانوا أقوى ناس في الأرض وأعظم صنف بشر على وجه البسيطة، وعندما خرجوا من عندنا كانوا الرجل المريض في أوروبا والرجل الميت في آسيا والرجل المتسول في بلاد الحمير.

قالت: وما السبب؟

قلت: السبب نحن ... ينظر إلينا الآخرون فيعجبون ثم يتحول الإعجاب إلى حبٍّ والحب إلى هيام والهيام إلى عشق، ثم يقلدون ثم يتصورون أنهم حميرٌ مثلنا، ولكنهم يفشلون لأن الحمورية وَقْف علينا؛ ولأنهم حمير تقليد بينما نحن الأصل.

قالت بعدما استمعت وانكشعت: أعتقد أنني الآن أستطيع أن أنال درجة الدكتوراه بامتياز، لو أنني قدمت هذه المعلومات إلى جامعة السوربون.

قلت: ولكني لم أنتهِ بعد مِن سرد العصر الحميري السابع.

قالت: إذن عندك أمثلة أخرى يا حماري العزيز.

قلت: العلة أبلغ الأمثلة وأعمقها؛ لأنه مثل معاصر.

قالت: قل أيها الحمار العبقري ... إن هذه أول مرة أرى فيها حمارًا وعبقريًّا في الوقت نفسه، ولكن دعنا الآن نأخذ قسطًا من الراحة؛ لكي نعاود الحديث في الصباح.

١ / ١٠ / ١٩٨٩م

أعلى مراحل الاستحمار

وفي الصباح زغدتني البنت ولكشتني، وتصورت لشدة حموريتي أن البنت قد أعدت للعبد لله إفطارًا شهيًّا، ولكن البنت كانت في العلم متشعللة، وعلى المعرفة مستعجلة، فصارحتني وصدمتني، وقالت: لا إفطار ولا عشاء قبل أن أعرف كل شيء عن العصر الحميري من الألف إلى الياء، هيا أيها الحمار العبقري حدِّثني أولًا كيف تكون حمارًا وعبقريًّا في نفس الوقت؟ قلت: إنها صفة على أية حال ليست مكتسبةً ولكنها جاءتني بالوراثة.

فجدي الأول يرحمه الله كان حمارًا وأستاذًا، وجدي السابق كان حمارًا وعمدة، وجدي الأسبق كان حمارًا وفلاحًا، وستي يرحمها الله كانت حمارة وعالمة.

قالت في دهشة: ستك كانت عالمة من العلماء؟

قلت: لا، بل كانت عالمة من العوالم. وفي بلادنا عالمات كثيرات أشهر بكثيرٍ من مدام كوري وأغنى بكثير من مدام تاتشر، وأكثر انتشارًا من مدام تحب بتنكر ليه!

قالت: وهل حصلن جميعًا أو بعضهن على الأقل على جائزة نوبل؟

قلت: لا، ففي العصر الحميري لا توجد جوائز نوبل، ولكن هناك جائزة موبيل، هل تعرفين العبقري حسن الإمام؟

قالت: للأسف لم أسمع بهذا الاسم من قبل.

قلت: هذا عبقري من فصيلتنا، وهو مخرج سينمائي متخصص في أفلام العوالم، أقصد العالمات؛ بمبة كشر وشفيقة القبطية وبنت بديعة، إلى آخر هذا الصنف من النساء اللاتي جعلن من بلادي قِبلة للعين والأعيان، وأثرياء المنطقة الحميرية، ومن طنجة إلى صنعاء!

قالت: ولكن ما له حسن الإمام؟

قلت: لا شيء، ولكني أردت فقط أن أوضح لك الصورة لتعرفي مهنة ستي ومكانتها يرحمها الله، إنها شيء مثل بديعة وشفيقة وبمبة كشر؛ إلى آخر هذا الصنف الطويل من النساء الخالدات في التاريخ!

قالت: إذن فقد أخرج حسن الإمام فيلمًا عن المرحومة ستك.

قلت: لا، لم يحدث هذا، والسبب خلاف عائلي وقع بيننا وبين المخرج.

قالت: خلاف؟ أي نوع من الخلاف تقصد؟

قلت: المخرج إياه من النوع الوحشي ونحن من النوع الحصاوي، وكانت بيننا دائمًا خلافات عائلية وأيديولوجية؛ ولذلك تجاهل المرحومة ستي رغم مكانتها الكبيرة وفنها الذي ليس له نظير! ومع ذلك فلنعد مرةً أخرى إلى ما كنا نتحدث فيه، كان حديثنا عن حموريتنا وأثرها في العالمين، وأعظم وأبلغ مثال هو الذي حدث مع العظمى بريطانيا؛ آخر إمبراطورية شهدها عصر ما قبل البنسلين، فعندما جاءت بريطانيا العظمى إلينا، كانت عظمى بحق وحقيق، وكان وزير المستعمرات البريطاني إذا كح في لندن، قال له من في الهند: يرحمك الله، وإذا تمخطرت فرقاطة واحدة في البحر الأبيض، أُغمي على كل صنف الحمير شرق البحر، وركع على ركبتيه كل من ألقى السمع وهو شهيد، ولكن مع مرور الوقت تأقلمت بريطانيا في بلادنا وتأثرت، وعندما خرجت من هناك كانت قد أصبحت دولة نامية، ثم تدحرجت بعد ذلك لتصبح دولة نائمة، واليوم اذهبي إلى بريطانيا ستجدين بصمات حوافرنا على كل شيء هناك؛ الشوارع كلها مطبات، وتليفونات الساحات كلها معطلة، ومترو الأنفاق تحول إلى مقلب زبالة، والخدمة كلها سيئة، وكل فرد وله مأساة، وأصبحت بريطانيا العظمى قطعةً من العصر الحميري، وأصابها شرُّه وخيره أيضًا لدرجة أن البترول تدفق من أرضها؛ باعتباره علامة مميزة على العصر الحميري دون سواه، والآن، لو أنك ركبت القطار من قلب لندن ستجدين نفسك بعد خمس ساعات في جبل لبنان.

قالت: جبل لبنان؟ إنها المرة الأولى التي تقول فيها كلامًا يدل على أنك حمار!

قلت: وهل كان عندك شك في أنني حمار؟ لقد صارحتك من أول لحظة بأنني حمار ابن حمار من نسل حمار من صلب حمار، وهل كنتِ تظنين أنني أخدعك عندما قلت: إنني حمار ولي الشرف؟ ثم هذه، ولا مؤاخذة، بادرة غير طيبة ستجعل صحبتنا صعبة وعشرتنا عسيرة، والمفروض أنني أقول الصدق؛ خصوصًا وأنني لا أريد منك جزاءً ولا شكورًا.

قالت: معذرة أيها الحمار الأصيل، ولا تؤاخذني بما بدر مني، ولكنك زودتها حبتين عندما قلت إنه على مسافة خمس ساعات بالقطار من لندن ستجدين نفسك في جبل لبنان.

قلت: بسيطة، وهذا معناه أن الحمير تعرف أكثر مما يعرف صنف البني آدمين، وما عليك إلا أن تسأليني: كيف؟

قالت: كيف؟

قلت: قبل أن أشرح لك الرواية، وأُقص عليك الحكاية، أرجو أن تجاوبيني بصراحةٍ على سؤال ... هل حدث يومًا أنك خطفت رِجلك إلى لبنان؟

قالت لا، لم أذهب يومًا إلى لبنان، ولكني أعرف موقعه بالضبط على الخريطة، وأعرف أيضًا أنه يبعُد عن لندن خمس ساعات بالطائرة وليس بالقطار.

قلت: عظيم، وقبل أن نبدأ في الشرح، أريد أن أوضح لك أن لبنان هذا جزء من بلادنا وقطعة من أرضنا.

احتجَّت البنت بشدة وقالت: اسمع بقى، أنا لست طفلة لكي تضحك على عقلي بكلامك الغريب، ولست جاهلة لكي تزيِّف عليَّ حقائق الجغرافيا والتاريخ، وإنك قلت من قبل: إنك من مركز الباجور منوفية، فكيف تعود الآن وتدَّعي أن لبنان الآن بعض أملاككم وجزء من أراضيكم؟

قلت للبنت المحتجة: هذه هي الحقيقة أيتها البنت المثقفة، ودعك من كتب التاريخ وأطالس الجغرافيا، فللعصر الحميري كتبه وخرائطه وعلومه التي لن تجِديها في الجامعة، ولكنك ستعثرين عليها في الواقع المر الأليم، والواقع أن بلادنا كلها اسمها مركز الباجور منوفية، نعم، كلها، من المحيط إلى الخليج، ولكن بعض الأجزاء اتخذت لنفسها أسماء حركية؛ مثل لبنان، سوريا، ليبيا، اليمن الشمالي، اليمن الجنوبي، قطر، تونس، الصومال.

قالت البنت منبهرة: ولكن لماذا تغيير الأسماء؟ ولماذا اللجوء إلى أسماء حركية؟ وهل يخدعون أنفسهم أم يخدعون الآخرين؟

قلت: لا هذا ولا ذاك في واقع الأمر، ولكن العائلة عندما خابت تشتتت وتقسمت، وتمزق العَلم تبعنا فصار عدة أعلام، وانقسم العمدة الذي كان رأسنا وخرج من بين ضلوعه عدة ملوك وعدة رؤساء وعدة سلاطين وعدة أمراء، ولكن ما علينا، فلم يكن هذا حديثنا على أية حال.

قالت: صحيح، لقد كنا نتحدث عن لبنان الذي يبعد عن لندن خمس ساعات بالقطار.

قلت: تمام، ولكن قبل ذلك ينبغي أن نذهب قليلًا إلى لبنان، فلبنان ينقسم إلى مليون لبناني، وكل لبناني دولة قائمة بذاتها، ودين له طقوسه ورسله ومعابده، وكتبه المقدسة التي نزلت رأسًا على صاحبنا هذا من السماء، ورغم القشرة الحضارية التي تبدو على

سطح لبنان، ففي الجوهرِ المسائلُ تختلف، وكل مواطن من طائفةٍ هو ضد مواطنه من الطائفة الأخرى؛ هذه هي حقيقة الأمور في لبنان الذي هو من أعمال مركز الباجور منوفية، ولكن كيف يبعد لبنان خمس ساعات في القطار عن مدينة لندن؟ فهذا هو بيت القصيد، هل تعرفين القصيد؟ قالت: لا، هذا شيء لا أعرفه ولا أدَّعيه.

قلت: إنه اسم الدلع للقصيدة، وبيت القصيد هو أفضل بيت شعر في القصيدة، ونحن — المواطنين — من العصر الحميري مولعون بشدة باستخدام أفعل التفضيل، فهذا البيت أفضل، وهذا الرجل أعظم، وهذا اليوم أخلد، وهذا أكرم، وهذا أبخل، وهذا أفظع، وهذا أروع، وعندنا سبهللة في إطلاق الأوصاف والألقاب، فمثلًا، أيامنا كلها خالدة، وخُطب زعمائنا كلها تاريخية، وكل خطاب لا بد أن يكون له صدى في العالمين، ولدينا أجهزة إعلام متخصصة في نشر الصدى والتعليق على الصدى! وكلما تولى عمدة في بلادنا منصبه، أصبح يوم توليه ثورة، وعندنا ثورات بعدد شعر رءوسنا، ثورة الفاتح من سبتمبر، وثورة القافل من نوفمبر، وثورة النازل من فبراير، وثورة الطالع من يناير، وثورة ١٥ عبده، وثورة ١٣ رجب، وثورة ١٨ نيسان، وثورة ٣١ أمشير، وكل ثوراتنا والحمد لله عالمية، وكلها غيَّرت وجه التاريخ، وغيرت معالم الجغرافيا! وكل كتب السماء نزلت خصوصًا لنا، ونزلت مباشرةً علينا، ولكن لشدة حموريتنا أضفنا إليها كتبًا من تأليفنا، ووثائق من عنديتنا، فلدينا كتاب أخضر زرعي، وكتاب أصفر زيتي، وكتاب أزرق بنفسجي، وهي كتب فلسفية واجتماعية وميتافيزيقية، تبحث في شئون الهيلولة وفيما وراء قفا الأفق! ولكن هذا لم يكن حديثنا على أية حال، فقد كنا نتحدث عن لبنان الذي يبعد خمس ساعات عن لندن، وعندما أقول: خمس ساعات، فأنا واثق أن المسافة تستغرق خمس ساعات بالتمام والكمال، وهي ميزة من ميزات بلادكم، ففي بلادكم ساعات، وفيها عقرب للدقائق وعقرب للثواني، ويستعملها الناس عندكم ليضبطوا مواعيدهم ويعرفوا بها أوقاتهم، ولكن بلادنا نحن تستعمل الساعات للهدايا والزينة، وربما لمعرفة مواعيد الهوى والغرام! والقطار عندنا إذا قام مثلًا من محطة مركز الباجور قاصدًا مركز أشمون جريس، أو قام من محطة بغداد إلى محطة الفالوجا، أو قام من محطة دمشق إلى محطة حماة؛ فهو يقوم بمزاجه، ويتهادى على كيفه، وهو لا يحدد وقتًا لوصوله؛ لأن في التحديد تحديًا للمشيئة، وهو سيصل حسب مشيئة الرحمن، وإذا لم يصل على الإطلاق فهذه إرادة السماء، ولذلك ستجدين على كل محطة ألف حُرمة في ملابس سوداء، جئن لتوديع المسافر من مركز إلى مركز؛ لأن الراكب مفقود، والقطار نفسه مفقود، مفقود مفقود يا ولدي!

قالت البنت الناعمة: على هذا أنتم تركبون الصعب في بلاد الحمير، تصورت أنكم ما دمتم حميرًا حياتكم سهلة، ومعيشتكم رغدة، وأموركم غاية في الدماثة والتسهيل.

قلت: معك حق يا ست يا غندورة، فقد كان هذا هو المفروض، ولكن تصوَّري حمير وأشغال شاقة، حمير ومصائب، حمير ومتاعب، حمير ونوائب! هذا شيء يسد النفس، ويعمي العين، ويقتل الروح والفؤاد والضمير، أو كما قال عمنا الفيلسوف أبو النصر المتعاجب ابن أبو شادوف المتألم.

قالت البنت المضروبة: ولكنك جرجرتني وراءك بلا طائل، ودوختني دون نتيجة، ولقد بدأت حديثك معي عن لبنان الذي يبعد عن لندن خمس ساعات بالقطار، ولكنك ذهبت شرقًا وذهبت غربًا، وتكلمت في الذرة وفي البصل الأخضر، دون أن تكشف لي عن سر لغزك، أو تجيب عن السؤال الذي طال انتظاري لسماع الجواب عليه.

وقلت: على مهلك أيتها البنت الخواجاية؛ فأنتِ أولًا الملومة، وثانيًا المسئولة، وثالثًا أنتِ التي اكتشفتِ أنني من أبناء العصر الحميري، وكنت حتى التقيت بك لا أعرف أكثر من أنني من مركز الباجور منوفية، والحق أقول: إنني كنت في غاية السعادة والانبساط، وإذا كان لا بد للإنسان أن ينتمي إلى فصيلة حيوانات، فقد كنت أتصور أنني أنتمي إلى العصر الأسدي أو العصر الفيلي أو العصر الخرتيتي، مع التجاوز والإكرام، ولكن بما أنك تعرفين أصلي وفصلي، فاعلمي أيتها الغندورة أننا في العصر الحميري نبدأ حديثًا عن الصين، ونستغرق الوقت كله في الحديث عن البرتغال! نرفع شعارات التحرير ونوقع المعاهدات السرية للتبعية والاحتلال! نتكلم عن الكفاح المسلح ونجعله في واقع الأمر مجرد كفاح مشلح ... لا يزيد! نحارب الاستعمار ونقبض من مخابراته! ندعو إلى العدالة الاجتماعية ونفتح بوتيكات بأسماء زوجاتنا في الحمرا وفي الشواربي وفي شارع الشيخ حمدان! نتكلم عن الدين والحرب والكتاب المقدس، ونشارك في رأسمال ملهى ليلي بشارع الأهرام أو في الزيتونة أو في السمج أو في الامتداد! أنتم تسمونها حمورية، ونحن نسميها كياسة وسياسة، وفتح عينك تاكل ملبن، وصلِّ على الواحد القهار!

قالت: ولكن الغريب مع أنك حمار فأنت تبدو ساخطًا على ما يدور في بلادكم وغير مستريح لما يجري هناك.

قلت: بالعكس، بل أنا راضٍ ومستريح وموافق ومبسوط وأربعة وعشرين قيراط، وأنا واحد من الـ ٩٩,٩٩٩ في المائة الذين يوافقون على كل استفتاء، وأنا مجرد شاهد على العصر، أرسم الصورة دون تدخُّل، وأحكي تفاصيل الحكاية دون موافقة أو معارضة، فهذه المشاعر أبعد ما تكون عن بالي المطمئن وضميري المستريح.

قالت: أفهم من ذلك أنه لا يوجد في بلادكم حمير في المعارضة؟

قلت: بل إنهم اليوم لكثيرون، عندنا معارضة بمرتب، ومعارضة على درجة، ومعارضة بمكافأة، وحكوميون معارون للمعارضة، ولدينا مناضلون يركبون المرسيدس، ويديرون بوتيكات للملابس المستوردة، ويشاركون اللصوص والحرامية والمجرمين! وعندنا قادة منظمات مسلحة دفاتر شيكاتهم أطول من الشريط الحدودي بيننا وبين إسرائيل! ولدينا معارضون ومهاجرون؛ فالذين يعارضون عمدة سوريا يقيمون في العراق، والذين يعارضون نظام العراق يقيمون في دوار عمدة ليبيا، والذين يرفضون قراءة الكتاب الأخضر يعيشون في المحروسة، والذين يعارضون المحروسة يعيشون في لبنان! وبعض هؤلاء هجر السياسة وتفرغ للتجارة. ونشأت في أماكن عديدة في بلادنا أحزاب معارضة تشتغل بأعمال الكهرباء، واحد من الكهرباء يدير مكتبًا ثقافيًّا ويصدر نشرة شهرية اسمها المباحث! ويقيم في شقة بمليون جنيه في بروكسل، ويفتي كثيرًا في أمور النضال والكفاح! وكهربائي آخر من شدة تعلُّقه بالقومية أسَّس شركات للكهربائيين العرب والميكانيكيين العرب، ويسعى الآن لإصدار جريدة قومية وحدوية لجمع الشمل فيما بين الهادر والثائر، وكله عند الحمير صابون!

قالت: أنت تقصد إذن أن هؤلاء المعارضين تخلَّوا نهائيًّا عن رسالتهم، وانضموا بصراحة إلى حزب المهلبين والمهربين!

قلت: أبدًا، المصيبة أنهم لا يزالون يعلنون في كل مناسبة أنهم من المد الثوري المتشنكر في الحنجوري؛ من أجل تعاظم قوى الشعب المتقعر في سبيل تلاحم الشواشي العليا للبرجوازية، من أجل جماهير الطبقات المطحونة في طريق الشحن المتبادل على طريق الثورة المرتقبة، من أجل قيام عالمٍ تسوده الحلبسة والأودسة والتأمين على الحياة!

قالت: ولكن نموذجًا واحدًا لا يعوَّل عليه، لا بد أنه شاذ ونشاز ومن الخوارج.

قلت: يا أيتها الست الطيبة، لو كان نموذجًا واحدًا لما شغل وقتنا بالحديث عن سيادته، ولكنهم كثير … صحيحٌ هناك نماذج أخرى جيدة، ولكنها قليلة، وهي الشذوذ الذي يثبت القاعدة، فالقاعدة هي التهليب، والشذوذ هو العمل من أجل الثورة، وعلى كل حال أنا أعرف نموذجًا آخر من عائلة ثرية، وهو نموذج تنطبق صفاته على كثيرين، وهو ثري أمثل يمتلك عمارة وسيارة وله حسابات في البنوك، وهو حائز على جائزة عبد الناصر من موسكو، وحائز على جائزة نكروما من السودان، وحائز على جائزة سوكارنو من إسبانيا، وحائز على جائزة فرانكو من اليابان، وهو في الرواية ينافس نجيب محفوظ، وفي المسرح

ولا توفيق الحكيم، وفي الشعر ولا أحمد شوقي، وهو في الثراء ولا عثمان أحمد عثمان، وهو، بعد ذلك وقبل ذلك، شيوعي قبل ماركس، ولينيني قبل لينين، وناصري قبل ظهور عبد الناصر، وتصحيحي من مرحلة أنور السادات!

قالت: إذن هو رجل من أنصار الحياة ومع الحياة، يمضي حيث تمضي، ويذهب حيث تذهب.

قلت: هذا صحيح، وهو في السياسة، كما في الحياة، يذهب معها أينما تذهب وفي أي اتجاه، وفي أيام عبد الناصر كان أبو الناصرية، وفي الانفتاح كان أول المنفتحين وأول المنتفعين!

قالت: إذن أفهم من ذلك أنكم تعانون من أزمة الكتاب الملتزمين.

قلت: بالعكس، بل إن كتَّابنا ملتزمون، وهم ملتزمون بالاتجاه السائد، وهم دعاةٌ للخليفة الموجود، وهم مع كل دولة حتى تسقط، وضد كل ساقط حتى يرتفع، وهم في النهاية ملتزمون بالمرتب والصرَّاف والحساب المودع في البنوك!

قالت: إذن فهم ساقطون في نظر الرأي العام.

قلت: أي رأي عام؟ إن مركز الباجور منوفية يعيش فيه مائة وخمسون مليون نسمة، وأعظم جريدة في مركز الباجور تبيع نصف مليون نسخة، وهناك مائة مليون على الأقل لا يعرفون أن في مركز الباجور جرائد، ولم يصل إلى علمهم بعدُ أن في مركز الباجور أدباء، نصف مليون فقط هو الذي يقرأ، وهو الذي يكتب، وهو الذي يحكم، وهو الذي يعكُم، وهو الذي يعيش ويأكل الياميش، أما الباقون فالله يرحم الجميع!

قالت: هل نسيت ما وعدتني به يا حماري الصغير؟ لقد قلت لي: إن لبنان على بُعد خمس ساعات بالقطار من لندن، ولكنك سرحت شمالًا ويمينًا دون أن تحل هذا اللغز.

قلت: آه، لقد نسيت ذلك في زحمة الأفكار والأخطار. الذي أقصده يا حضرة الست الخواجاية أنه على بُعد خمس ساعات من لندن في القطار يوجد بلد أوروبي، ولكنه في الحقيقة جزء من مركز الباجور منوفية؛ هذا البلد هو أيرلندا، وفي أيرلندا مسيحي بروتستانتي ومسيحي كاثوليكي، ومع كل واحدٍ منهم سلاح، وفي جيب كل منهم قنبلة، وفي يد كل منهم بندقية، وفي صدر كل منهم حقد صايع كفران، وأنتم تزعمون أنكم من أوروبا، وأنكم مهد النور والحضارة، وبلاد الورد والنضارة، ومع ذلك ففي بلادكم حرب ولا حرب جبل لبنان، وإلا فما رأيك فيما يجري في أيرلندا من حرب أهلية؟ وما رأيك فيما يحدث في هولنده من عنصرية ضد السود والكلاب؟ وما رأيك فيما يجري في بلجيكا ضد

العرب والأتراك؟ وما رأيك فيما يجري هنا في باريس ضد المغاربة والتوانسة؟ وما رأيك فيما يجري في ألمانيا ضد كل شرقي؟ ثم ما رأيك — دام فضلك — فيما يجري في إسبانيا في الماضي القريب أيام فرانكو، وفي البرتغال أيام سالازار؟

قالت: أنا لا أفهمك، ماذا تقصد بكلامك هذا أيها الرجل الحمار؟

قلت: أقصد بصراحة، والصراحة أحيانًا أخت الوقاحة، أقصد أن أوروبا نفسها جزء من مركز الباجور منوفية، وأنك أجهدت نفسك في البحث عن العصر الحميري مع أن العصر الحميري موجود تحت بصرك، وتستطيعين اكتشافه لو أنك ألقيت نظرةً بطرف عينيك ذات اليمين أو ذات اليسار.

قالت: قد يكون في كلامك بعض الصدق يا حماري العزيز، ولكن الناس هنا شكلهم مختلف عن أهل العصر الحميري.

قلت: هذه هي النظرة البسيطة للأمور، أما النظرة العميقة فتكتشف أن العصر الحميري ليس في الشكل أو ملامح الوجه أو حجم الجمجمة، وأن الذي يحكم في النهاية هو تصاريف العقل وتبعًا للنيات والأعمال.

قالت: إذن فأنت تقصد أننا جميعًا حمير، وكلنا نعيش في العصر الحميري السابع.

قلت: بل نحن نعيش في العصر الحميري الأخير، فلا أظن أن حميرًا غيرنا سيأتون من بعدنا، كما أنني لا أعتقد أن حميرًا غيرنا، حتى ولو أتوا من بعدنا، سيحققون ما حققناه أو سيصنعون ما صنعناه، فمن الحق أن نقول: إن حموريتنا هي الأصل وأننا بلغنا أعلى مراحل الاستحمار!

١ / ١١ / ١٩٨٩م

لك هادا ... والشاويش حمدان!

قالت البنت العصفورة الكركورة: أعتقد أنك تبالغ يا حماري العزيز ... قلت: بالعكس، بل أنا متواضع، والحقيقة أسوأ من هذا بكثير، فمثلًا، نحن نعيش في رقعة أرض واحدة، ونتكلم لغة واحدة، ونعبد إلهًا واحدًا، ومع ذلك، فكل عشرة أمتار نحتاج إلى تأشيرة دخول، وتغيير عملة، وإقامة من دوائر الشرطة، وأحيانًا نحتاج إلى كفيل، قُطر واحد من أقطار العصر الحميري يسمح لأبناء العصر الحميري بالدخول دون تأشيرة دخول، ولكنه إذا أراد أن يخرج فعليه أن يحصل على تأشيرة خروج!

ولدينا فوق ذلك عشرات الرؤساء، وعشرات الملوك، وعشرات الأمراء، وبعض السلاطين! ولدينا حكومات ووزراء ومئات اللوائح والقوانين! وزمان في بلادنا خرج رجل بسيط فقير مندهش على الدوام، اسمه ابن بطوطة، خرج من طنجة بلاد الله لخلق الله، وذهب إلى تلمسان، ومن تلمسان إلى الجزائر، ومن الجزائر إلى صفاقس، ومن صفاقس إلى طرابلس، ومن طرابلس إلى سيوة، ومن سيوة إلى الإسكندرية، ومن الإسكندرية إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى غزة، ومن غزة إلى القدس، ومن القدس إلى دمشق الشام، ومن دمشق الشام إلى بغداد، ومن بغداد إلى الحجاز، ومن الحجاز إلى البحرين، ومن البحرين إلى مسقط، ومن مسقط إلى صنعاء، ومن صنعاء إلى عدن، ومن عدن إلى الصومال، ثم عاد من حيث جاء، ولم يستوقفه أحد، ولم يفتشه أحد، ولم يسأله أحد إبراز الهوية أو الجواز، ونزل في كل مكانٍ أهلًا وسهلًا، آخر مراحب وآخر احترام، ولقد تم هذا منذ ألف عام، قبل حلول العصر الحميري الذي نحياه الآن، ترى أيتها الست الكركورة الغندورة، ماذا يحدث الآن لو جاء ابن بطوطة آخر وأراد أن يلف بلاد العرب، وأن يزور أبناء الأرومة والعمومة الأعزاء؟ وإذا حدثت معجزة ونجا بجلده من طنجة، فسيقضي بقية العمر في سجون صفاقس، فإذا نجا من صفاقس فسيموت حتمًا في تخشيبة محافظة الإسكندرية، فإذا استطاع أن ينجو من

كل هذا، فسيقضي نحبه قبل أن يستطيع الحصول على تأشيرة دخول للخليج، فإذا حصل عليها قبل الموت، فلا بد له إذا أراد أن يتاجر أو يكتب أو يؤلف كتابًا، أن يبحث لنفسه عن كفيل!

قالت: هذا في بلادكم، أما في بلادنا فالأمر يختلف.

قلت: أبدًا، الحال من بعضه، ونحن وأنتم في الهموم سواء؛ فأوروبا دولة واحدة، ودين واحد، واقتصاد واحد، ومطامع واحدة، ومع ذلك عشرون دولة، وعشرون حكومة، وعشرون صنفًا من أصناف العملة، وعشرون جواز سفر، وعشرون خيبة بالويبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قالت البنت الكركورة: خيَّبك الله! اكتشفت أنك من العصر الحميري، فاكتشفت أنت أنني من فصيلتكم، ورغم أنني غير مقتنعة إلا أنك جعلت الفار يلعب في عبِّي، ولكن بالرغم من ذلك، فأنا مصممة على أن أنجب لك طفلًا، فأنا ما زلت متأكدة من أنك الحمار الوحيد الباقي على قيد الحياة.

قلت: أما ذلك فدونه ضرب الرقاب، ليس بسبب عفَّتي وتمنُّعي لا سمح الله، ولكن بسبب عجزي وشيخوختي، فأنا حمار صحيح، ولكني حمار عقيم ... عقيمٌ يا كركورتي.

وفي الصباح الباكر أيقظتني البنت الحلوة بعد أن قرصتني وزغزغتني، وقالت: لقد شوَّقتني لرؤية بلادك أيها الحمار العجوز، فلا بد أن الهدوء يرفرف على ربوعها، والطمأنينة تسكن في قلوب جموعها، ولا بد أن كل شيء وأي شيء هادئ وعلى ما يرام.

قلت للست الغندورة: ومن أين هبط عليك هذا التصور العجيب؟

قالت وهي تتقصع وتتمطع: ما دمتم حميرًا، فلا شيء لديكم إلا الأكل والنهيق.

قلت: هذا صحيح أيتها الست الكركورة في عالم الحمير، أما في عالم الحمير البني آدمين، فالأمر يختلف؛ ففي بلادنا حرب أهلية على ودنه، ومذابح ولا مذبحة محمد علي في القلعة لصنف المماليك.

قالت: مماليك! تقصد ملوك؟

قلت: لا، أقصد مماليك، وهم صنف من البشر اشتريناهم، نحن الحمير، بفلوسنا، وأطعمناهم من قوتنا، وربيناهم، وعلمناهم، ثم نصَّبناهم ملوكًا علينا، فضربونا ضرْب غرائب الإبل، واستنزفونا ولا استنزاف أمريكا في كوريا، واستمروا حكَّامًا علينا لمدة ستمائة عام دون أن يكونوا معتنقين بديننا، أو ملمِّين بلغتنا، أو عارفين بأحوالنا!

قالت البنت مندهشة: ولكن لماذا لم تثوروا ضدهم ولم تنقلبوا عليهم؟

قلت: حدثت ضدهم ألف ثورة، ولكنها لم تكن من جانبنا، ولكن الثوار كانوا من صنف المماليك أيضًا، بينما كنا نحن نشاهد ونتفرج، وننتظر من يغلب لنؤدي له الجزية، ونمنحه ولاءنا صاغرين!

قالت: كيف؟

قلت: لأن حكمتنا هي عصير تجاربنا، ولدينا شعار نعمل به جميعًا، شعار يقول: اللي يتجوز أمي أقول له: يا عمي! ولدينا مثل يقول: إن لقيت بلد بتعبد عجل حِش واديله!

قالت: وهل جميع الناس كانت تحش وتديله؟

قلت: في الواقع لم يكن جميع الناس، ولكن بعضهم فقط؛ فقد انقسم الناس إلى قسمين؛ ناس تحش وتديله، وناس تحشش وتديها!

فقالت: تحشش! تعني أنهم كانوا يحشون كثيرًا؟

قلت: لا، فالذي يحش اختار موقفه، وقرر أن ينتظم في الصف، وأن يلتزم بالموافقة؛ ليصبح في النهاية مواطنًا صالحًا ترضى عنه الحكومة وأجهزة الأمن، أما الذي يحشش، فقد آثر أن ينفصل، ليس عن النظام، ولكن عن العصر، فهو يختار العصر الذي يريد أن يعيش فيه، في الماضي، في المستقبل، كل حشَّاش حر يختار الزمن الذي يريد أن يعيش فيه، ويختار المكان الذي يريد أن يقيم فيه.

قالت: ولكن كيف يستطيع أن يحقق أمنيةً عزيزة يتمنى كل إنسان أن يحققها لو استطاع؟

قلت: المسألة بسيطة، ما على الحشاش إلا أن يختار، ثم يشفط من الجوزة شفطة، ويكون أفضل وأسرع لو استطاع أن يكتم الأنفاس، وعلى الفور سينتقل إلى المكان الذي يريد والعصر الذي يختار!

قالت: يا لكم من مخترعين ليس لكم مثيل! اخترعتم أشياء لم تصل إليها حتى أحلامنا وانتقلتم في سرعة الصاروخ، ليس من مكانٍ إلى آخر، ولكن من عصرٍ إلى آخر، لقد حققتم معجزة بكل المقاييس.

قلت: عندنا من هذه الاختراعات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولكن فلنؤجل هذا الحديث الآن فلكل حادثٍ حديث، لقد كان حديثنا عن الحرب الأهلية المشتعلة عندنا، والمذبحة الشغالة في بلادنا ولا مذبحة المماليك. كان لدينا بلد اسمه لبنان، وكنا جميعًا نحب لبنان، ونموت في لبنان، ونعشق لبنان وجبال لبنان ومزارع لبنان وعيون الماء في لبنان وعرقي لبنان، وكان لبنان متميزًا وله وضع خاص، كان منتجعًا لأثرياء بلدنا، ومتنفَّسًا

لأحرار بلادنا، ومنطقة حرة للمذاهب والمبادئ والآراء، حتى جاء رجل من أبنائه فأحاله إلى خرائب وأنقاض، رجل واحد اسمه شمعون، وهو حليوه وعايق وغندور ومنفوش على الفاضي وعلى المليان ولا الديك الرومي الجربان، ولقد حاول أن يهدم لبنان مرتين، مرة في عام ١٩٥٨م، وكان يومها رئيسًا للبلاد، في تلك الأيام نجح شمعون في شق البلاد إلى بلدين وشعبه إلى شعبين، ورفع الأخ السلاح في وجه أخيه، والابن في وجه أبيه، وسالت دماء وأُزهقت أرواح، وتحول لبنان على يديه إلى خرائب وأنقاض، ثم حاول مرةً أخرى أخيرًا، ونجح هذه المرة فيما كان يتوق إليه، وتحول لبنان بالفعل إلى خرائب وصار مأوى للبوم والغربان.

قالت البنت الفرنساوية: أنت تقصد شمعون بيريز؟ قلت: أنا أقصد شمعون كميلز، ويختصرون الاسم في لبنان ويسمونه كميل، وقد حمل لقب الرئاسة مرتين، وفي النهاية كان صاحب وزارتين، كان وسيمًا يصلح مانيكانًا في حي البيجال في باريس، أو صاحب بيت في ساحة البرج في بيروت، ولكنه أخطأ الطريق واشتغل بالسياسة، وأصبح شمعون بين الساسة كما صار شولح بين الأنبياء!

قالت البنت: عجيبةٌ أموركم، وأعجب منها أحوالكم، إذا كان قد حاول تدمير لبنان في العام ١٩٥٨م، فلماذا انتخبتموه وزيرًا لوزارتين في العام ١٩٧٥م؟

قلت: عيبك الوحيد أيتها البنت الفرنساوية أنك تدرسين العصر الحميري على الورق ولا تدرسينه في الطبيعة، فنحن يا بنت الأبالسة لا ننتخب حكامنا ولا نختارهم، ولكنهم يحطُّون على رءوسنا كما المصيبة، وينزلون بنا كما الكارثة، ويجلسون على الكراسي كما المآسي، ولا فكاك منهم إلا بعمك المنقذ عزرائيل!

لوت البنت الفرنساوية بوزها وكشرت عن أسنانها، وقالت: أعوذ بالله، إذن أنتم لا تعرفون الانتخابات؟

قلت: بل نحن أكثر مخاليق الله إجراءً للانتخابات، ونتائجها دايمًا معروفة بإذن الله ٩٩,٩٩٩٪.

قالت: وتستخدمون الكمبيوتر في معرفة النتائج؟

قلت: بل نستخدم اختراعًا أحدث؛ هو الكِذْبيوتر والتزويوتر!

قالت: الكذبيوتر! لم أسمع به من قبل.

قلت: ولن تسمعي به على الإطلاق، إنه اختراع جديد وقْف علينا، وله قدرة فائقة على حصر الشاردة والواردة، وهو يضع في خانة الذين قالوا: نعم، حتى الشجر والحجر، وأحيانًا يضيف الموتى والمومياوات التي في متحف الآثار.

قالت البنت منشكحة: يا لعمق حضارتكم! ويا لرفعة أفكاركم! تحترمون الموتى فتشركونهم في أمور دنياكم، وتسألونهم عن هوية حكَّامكم، هذا سلوك متحضر، ليس له مثيل على ظهر الكرة الأرضية الآن.

قلت: في الواقع نحن نسلك هذا السلوك ليس احترامًا للموتى، ولكن احترامًا للحكام الأحياء، فنحن نريد لحكامنا أن يبدءوا حكمهم ومعهم تفويض من كل الأمة؛ أحياءً وموتى، حاضرين وغائبين، مقيمين ومسافرين، موافقين ورافضين!

قالت: وهل يوافق القاضي على هذا الأمر؟

قلت: وما علاقة القاضي بهذا الأمر؟

قالت: أليس القاضي هو الذي يشرف على عملية فرز الأصوات؟

قلت: حاشا لله! إن الذي يشرف على عملية الانتخابات هو الشاويش حمدان.

قالت: ومن هو الشاويش حمدان؟

قلت: لا، هذه مسألة عويصة تحتاج إلى تفكير، وهي أيضًا تحتاج إلى وقت لكي يقرأ الصمدية؛ حتى يكفيه شر الشاويشية والضباط النوبتجية، فإلى الصباح يا فرنساوية، إلى حيث الكلام المباح والمستباح!

وفي الصباح استيقظنا على موسيقى ناعمة، وألحان حالمة، وقالت: وعدتني يا حماري العجوز أن تحدثني عن الشاويش حمدان.

قلت: نعم أيتها الست الخواجاية، إن الشاويش حمدان عصب الحياة عندنا، ومحور الحياة في بلادنا، وهو من دم ولحم مثل حالي وحالك، ولكن يميزه الكرش البارز كأنه امرأة حبلى في توءم ... وله قفا عريض يصلح للمصافحة! وكما قال عمك بيرم التونسي شاعرنا الشعبي يرثي شاويشًا مات يُدعى غانم، قال بيرم التونسي طيَّب الله ثراه: وانشال سي غانم مرابعة بعد ندب كفاه، ولطم كان يستحقه في حياته قفاه! ثم له بعد ذلك ذراعان اللهم صل على سيدنا النبي كأنه يأكل مع عميان! أو هو في الحقيقة يأكل بالمجان، ويصبح له هذا الحق — الأكل بالمجان — ما دام على ذراعه ثلاثة أشرطة من القصب أحيانًا، ومن المخمل أحيانًا، وحبذا لو زينت الأشرطة نجمة، ويا داهية دقي لو زينها تاج، وستجدين هذا الشاويش في بلادنا في كل مكان؛ في المطار، في الشارع، في المحكمة، في المدارس، في الجامعات.

قالت بنت المهروشة: وهل يذهب الشاويش إلى الجامعة ليتعلم؟

قلت: بل يذهب ليعلم المتعلمين كيف يكون الأدب والنظام، ففي بلادنا شيء اسمه حرس الجامعة، وكأن الجامعة متهمٌ يُخشى هروبه ولا بد له من حرس؛ كأنها حرامي ولا بد للشاويش من مراقبته حتى لا يركن للفرار!

قالت: وهل يعلِّم الشاويش الطلبة النظام والأدب أثناء المحاضرات؟

قلت: بل أثناء المظاهرات، ووسيلته في التعليم سهلة وبسيطة، في البداية يعالج الأمر بالعصا، فإن أفلحت كان بها، وإلا فبالقنابل والرصاص، ولكن خطره الحقيقي ليس الفطور وهو يفكر في أمر تدبير العشاء، ومع ذلك فنحن لا نشعر بأننا موجودون فعلًا على قيد الحياة؛ لأن الحي يرزق، وأغلبنا يعيش ولا يرزق، وبذلك أثبتنا بطلان الوجودية وبطلان المبدأ الذي قامت عليه! ثم ما هي الماركسية؟ أليست هي التي قالت: إن رأس المال هو نتيجة فائض القيمة؟ أي: هو الفارق بين أجر العامل المدفوع وجهده الحقيقي الذي بذله في إنتاج السلعة، لقد أثبتنا أيضًا أنها مجرد كلام فارغ ووقت ضائع، وأثبتنا أن رأس المال نتيجة الرشاوى والسمسرة والعمولات.

قالت: يا سلام! إذن عندكم مصنع رشاوى وشركات سمسرة ومعامل عمولات؟

قلت: بالعكس، المصانع عندكم، والمعامل لديكم والشركات في بلادكم، ولنا نحن الرشوة والسمسرة والعمولة، وأيضًا لدينا الحكمة الخالدة: اللي يطعم الفم لازم تستحي منه العين.

قالت: لم أفهم مرادك.

قلت: هل تسمعين بشركة لوكهيت؟

قالت: بالطبع، إنها شركة مشهورة ومصالحها في كل المعمورة.

قلت: وهل عرفت ما حدث منها ولها في الفترة الأخيرة؟

قالت: بالطبع، وسمعت أنها رشت الحكام في أفريقيا، ورشت رئيسًا للوزراء في اليابان، حاكموه بعد أن ثبتت عليه التهمة، فعزلوه وسجنوه، وعلى البرش أجلسوه.

قلت: عفارم عليكي يا فرنساوية، ولكن هل تعلمين أنها في الأصل شركة حميرية وبعد ذلك أمريكية؟

قالت: لم أسمع بهذا من قبل.

قلت: هذه هي الحقيقة؛ فهي في الأصل نشأت في الصحراء، وكانت تنتج البغل والحمار والبعير، وكان إذا ذهب مندوبها إلى الصحراء وباع صفقة لأحد المشايخ، قدم المندوب للشيخ بعض المال، وكان الشيخ يسأل: وما هذا؟ فيرد المندوب «لك هادا»، فيقبل الشيك ويشكر، واشتهرت الشركة باسم «لك هادا»، فلما انتقلت الشركة إلى الغرب، وتحولت من صناعة الدواب إلى صناعة الحرب، حدث لاسمها تحريف، ومن بعد لك هادا صار اسمها «لوكهيد».

قالت: صحيح، ما أشد التطابق بين الاسمين!

قلت: وهذه الشركة تبيع لنا وتدفع لبعضنا رشاوى وتدفع لبعضنا عمولات، وهؤلاء أصبحوا ولا أوناسيس بتاع اليونان ولا روتشيلد بتاع فرنسا.

قالت: يا لك من حمار نابغة! تتعقب أصول الأشياء، وتقدم لها الأدلة الدامغة، ولكنك لم تحدثني عن القضايا الفكرية والأمور الفقهية التي تشغل بال الفقهاء والعلماء في بلاد ما بين البحر والصحراء.

قلت: آه، صحيح، ولكن لكل مقامٍ مقال، ولكل حادثٍ حديث، فأمهليني أيتها البنت الحلوة إلى الغد، وتعالي الآن ننام، فقد تبدَّد مني الجهد وهدَّني السهر والسهد.

١ / ١٢ / ١٩٨٩م

المجوس والجاموس!

استيقظت المرأة الخواجاية المجنونة من النجمة وقالت للعبد لله: احكِ لي أيها الحمار عن مشاكلكم الفقهية وقضاياكم الفكرية.

قلت: للمرأة المضروبة: هكذا على غيار الريق، وبلا حتى شفطة شاي أو طبق فول؟!

انقمصت البنت وضربت بوزها شبرين، اقتربت منها وسألتها عن سبب زعلها.

قالت: أيها الحمار تصفني بالسخافة وتنطقها في وجهي وتقول: «فول»! ضحكت من قولها، فاشتد غيظها وصرخت بأعلى الصوت: معلون أبو الدراسة وملعون أبو العلم؛ أنا أصاحبك رغم أنفي، وأرافقك رغم وجهك الملخبط وسحنتك المقلوبة، وأظافرك التي لم تعرف المقص منذ عقدين من الزمان، وأنا أفعل ذلك خدمة للحقيقة وخدمة للعلم.

ولكن يبدو أنكم حمير بالفعل لا تقدرون العلم ولا تحترمون العلماء. طيبت خاطر البنت وقلت وأنا أمسح على شعرها وأربِّت على كتفها: «فول» بالإنجليزي غير فول باللغة الحميرية، الفول عندنا ليس صفة ولكنه اسم لطعام شعبي، هو في الحقيقة أخطر على شعبنا من الغزو العسكري والفكري والاقتصادي، وإذا كنتم تأكلون الزبد واللبن في الصباح ... فنحن نفطر على الفول، ولا يزاحمنا في أكله إلا صنف الحمير والبغال، وهو صحيح مغذي ومفيد ويربي مجانص وعضلات، ولكنه مأكول دواب لا مؤاخذة، وليس بمأكول بني آدمين وصنف الحيوان لأنه أصدق من صنف البني آدمين؛ فهو يأكله حاف وبقشره، ولكننا، نحن، نتفنن في طبخه، فنأكله مرة بالزيت والليمون البنزهير، ومرة بالزبدة، ومرة نخدِّع له بالقوطة وفص الثوم، حتى الذين يأكلونه بالزيت يلوِّنون في أصناف الزيت، البعض يأكله بزيت فرنساوي، والبعض الآخر يفضله بالزيت الحار، والمرضى يعدون منه أطباقًا اسمها الفول النابت، والبعض يأكله أخضر مع الجبنة، ويطلق عليه اسم الفول الحراتي.

قاطعتني البنت وقالت: هل تلقي عليَّ محاضرة في طبق الفول.

قلت: فليكن الأمر كذلك، وحتى تفهمي سبب بلادتنا وتناحتنا، هل تعرفين التناحة؟

أجابت البنت: تاناحا، هذا اسم شركة متعددة الجنسيات مثل توشيبا وتويوتا ... أليس كذلك؟

قلت: بل هي صفة من صفاتنا، ومعناها التربسة، أحيانًا يتربس الواحد من صنفنا فلا تعرفي له رأسًا من رجلين، نسأله عن الشارع الفلاني فيقول: هه! مع أنه استمع إلى السؤال واستوعبه، ولكن حالة التناحة حطت عليه فيفقد القدرة على تقدير الأمور، تسأله فيسألك، تأمره فيتربس كما الفحل الجربان، ولكن لماذا التربسة؟ بسبب تفاعل الفول مع البصل الأخضر مع العيش الآلي؛ حيث تتصاعد الأبخرة وتلقي بغلالتها على عقل الإنسان، ويتربس ويصبح كما الجاموس البري بالتمام والكمال.

قاطعتني البنت اللهلوبة وقالت: لا تسرح بي أيها الحمار التعبان، احكيلي عن قضاياكم الفقهية والفكرية ... فأنا متشوقة وشديدة الرغبة في اكتشاف أعماق العصر الحميري وقضاياه.

ولما كان ما باليد حيلة، ولا بد من الحكاية والرواية، فتوكلت على الذي لا ينام، وحكيت كما شهر زاد للسلطان شهريار: أول شيء يا ست يا خواجاية، عندنا مسألة فقهية صعبة للغاية ومزمنة أيضًا، وعمرها الآن حوالي ألف ومائتي عام، المسألة في كلمتين: هل يُنقض وضوء من يحمل على كتفه قِربة فساء ويدور بها بين الناس في الأسواق؟

قالت البنت وقد انتبهت وابتهجت: أولًا ما هو الوضوء؟

قلت: الوضوء يا ست الخواجاية هو تطهير للبدن قبل الصلاة، وقد فرضه علينا الإسلام، وعلَّمنا إياه الرسول الكريم، ونحن نتوضأ كل يوم خمس مرات، ولكن أحد الفقهاء المتبحرين في العلم توقف مرة، وبحث مرات، وفكر ألف مرة، ثم ألقى بالسؤال المعجزة، هل ينقض وضوء من يحمل على كتفه قربة فساء؟

قالت البنت: ولكن ما هو الفساء؟ فأنا لم أسمع به بعد.

قلت: الفساء يا حلوة هي مادة كيماوية بفعل تفاعل البصل مع الثوم مع الفول مع الكرَّات مع السمك البلطي مع الشاي الأسود المخروط، ومن خلال هذا التفاعل تحدث قذائف أقوى مفعولًا من القنبلة الذرية، وتشيع روائح في الجو محرمة دوليًّا شأنها شأن الغازات السامة وقنابل النابالم.

سألت البنت: ولكن من الذي يطلِقها؟

قلت: يطلقها الرجل الذي تناول الأطعمة إياها التي ذكرتها لك من قبل.

قالت: آه، أتقصد غازات؟

قلت: هي غازات بالضبط، ولكن غازاتنا تختلف عن غازاتكم؛ غازاتكم هي نتيجة لأكل الشيكولاتة والجاتوه، ولكن غازاتنا أعوذ بالله.

يقال: إن بهانة الحجاوي جدة العبقري زكريا الحجاوي وزوجها برعي السعدني جد العبد لله؛ استطاعا وحدهما صد الغزو الصليبي على دمياط في العصر الوسيط.

قالت: إذن فأنت من أسرة محاربة ومن طبقة عسكرية لها تاريخ!

قلت: الحقيقة أن جدي برعي لم يكن عسكريًّا، ولكنه كان فلاحًا، وجدة الحجاوي لم تكن مجاهدة، ولكنها كانت تصطاد السمك من بحيرة المنزلة، وذات صباح كانا يتريضان على الشاطئ عندما لمحا قِطع الأسطول الفرنساوي تقترب من البر، وفي الحال قاما بتشليح ملابسهما وأطلقا بعض الغازات في الجو فمات كل العساكر الفرنساوية، وارتدَّت الغزوة الصليبية، ونجت مصر بفضل هذا الاختراع الجهنمي الغريب.

ضحكت البنت وأرعشت حاجبها رعشةً وقالت: ولكن كيف يحمل الإنسان الفساء على كتفه ويمشي به في الأسواق؟

أجبتها: العالم الجليل تبعنا تصور في قعدة انسجام أنها ما دامت غازات فمن السهل تعبئتها في زجاجات، ولما كان اختراع الزجاجات لم تعرفه البشرية بعد، فقد تصور أنه يمكن تعبئة الفساء في قِرَب، ولكنه لم يرهق نفسه في اكتشاف الطريقة التي يمكن عن طريقها توصيل الفساء إلى القربة.

قالت البنت الفرنسية: ممكن استخدام مواسير أو خراطيم، ويستحسن أن تكون من البلاستيك.

قلت وأنا أضحك من جهل الحمارة الفرنسية: في ذلك الزمان لم يكن هناك بلاستيك.

قالت: أعرف، ولكن يوجد دائمًا بدائل، بوص، قمع ورق، المهم أن تملأ القربة بالفساء، قلت: الحقيقة أنه لم يتعب نفسه، ولكنه ألقى بالسؤال فأحدث نفس الأثر الذي يُحدِثه إلقاء قنبلة ذرية على مدينة آهلة بالسكان.

قالت البنت المرمر: وهل توصلتم إلى حل؟

قلت: حتى الآن لم يشاهَد رجل واحد يمشي بين الناس في الأسواق؛ وهو يحمل على كتفه قربة فساء، ولكن السؤال لا يزال مطروحًا، وحلقات البحث والدرس لا تزال تبحث الموضوع، والمعركة لا تزال على أُشُدِّها بين الفقهاء والعلماء.

ومطَّت البنت شفتيها ولعقت بلسانها وقالت: إذن ليس لديكم مشاكل فكرية حديثة أو قضايا فكرية عصرية؟

قلت: فَشَر مرة وألف فشر؛ لدينا الآن مشكلة آخر موضة وآخر صيحة من صيحات العصر، عندك مثلًا مشكلة الشورت الشرعي، وهل ينزل إلى ما تحت الركبتين، أم يطول إلى أصابع القدمين؟ عندك مثلًا مشكلة الدولار وبيعه في السوق السوداء؛ هل هو حرام أم حلال؟ أغلب الفقهاء قالوا: إنه حلال؛ خصوصًا إذا كان الصرف يدًا بيد، وهؤلاء الفقهاء هم الذين يتاجرون في السوق السوداء بالأخص الأمريكاني، أما الفقهاء الذين يشتغلون بشركات توظيف الأموال، فقد حللوا الإتجار بالعملة سواء يدًا بيد أو شيكًا بشيك، أو تحويلًا بتحويل، وعندك مثلًا وجه المرأة؛ هل هو عورة؟ وهل يجوز كشفه للغرباء، أم إخفاؤه تحت خيمة من القماش؟ وعندك مثلًا أغنية «من غير ليه»؛ هل هي حرام أم حلال؟ أغلب الفقهاء يقولون: إنها حرام، ولعن الله مؤلفها وملحنها ومطربها وسامعها إلى يوم الدين، عندك مثلًا المسرح، أغلب العرفاء، أقصد الفقهاء، مصرُّون على أنه من صنع الشيطان، لدرجة أنهم هجموا مرةً على مسرح ونسفوه بالقنابل.

قالت البنت: تقول: بالقنابل؟!

قلت: آه، بالقنابل والمتفجرات.

قالت: المسرح مجال الثقافة والفنون والجمال، فكيف تعالجون المسرح بالمفرقعات؟

قلت: هذه هي معجزات العصر الحميري، عندنا كل شيء ينتهي بمتفجرات، تأكلين طبق فول الصبح تقضين النهار كله في إطلاق متفجرات، نختلف في السياسة فنحمل السلاح، نختلف في الرأي فنهجم على الخصم بالسيارات الملغومة وبطلقات الرصاص، عندنا في العصر الحميري صحفي يصدر مجلة في أوروبا يمشي محاطًا بحرس يحمل الرشاشات، عساكر الشرطة عندنا تحمل بنادق بعيدة المدى، وتقف بها في الشارع وكأنها في ميدان القتال، حتى في أعيادنا يحتفل الأطفال بفرقعة البمب، وحتى في أفراحنا يطلق المعازيم النار، وغالبًا يقتلون العريس أو العروسة، وهي أحيانًا تكون خدمة لأحدهما أو لكليهما على حدٍّ سواء.

قالت البنت المهتمة بالمعرفة والحريصة على اكتشاف أصل الأشياء: إذن أنتم كما هو واضح من أصل مجوسي، وحبكم للنار دليل على أن عقلكم الباطن يدفعكم للعودة إلى الجذور والارتداد للأعماق.

ولأول مرة أقوم بسؤال البنت الفرنساوية، قلت لها على الفور: تقولين: من أصلٍ مجوسي؟

قالت: نعم.

قلت: للأسف الشديد حضرتك ذكرت الحقيقة، ولكنك أخطأت في حرفٍ واحد، فالواقع أننا من أصل جاموسي، ولذلك نفعل عكس ما يفعله البني آدمين على خط مستقيم، في بلادكم مثلًا كل التسهيلات للتاكسي، وكل القيود على الملاكي؛ لأن التاكسي خدمة عامة، والملاكي للفشخرة والمزاج، عندنا كل التسهيلات للملاكي، كل التعقيدات للتاكسي، ليه؟ لأن سواق التاكسي عامل حقير، بينما صاحب الملاكي راجل ألاجة، صاحب فلوس أو صاحب نفوذ، واحترامه واجب، وتسهيل الأمور لسعادته ضروري من أجل التقدم والبناء، عندكم مثلًا كل شيء يمكن إرساله بالبريد، تدفع فلوس الكهرباء بالبريد، تدفع فاتورة التليفون بالبريد، تدفع ضريبة الحكومة بالبريد، عندنا لازم تقف في طابور، ويشتمك الموظف، ويلزقك الفرَّاش على قفاك، ويكون المخرج الوحيد أمامك هو دفع رشوة؛ لكي يسهلوا لك عملية دفع الفلوس! أنا أدفع وأنا الذي يُشتم ويُضرب ويهان!

شهقت البنت الفرنساوية ونهقت وقالت: يا سلام! لم أكن أعرف أنكم على هذه الدرجة من الحضارة والسمو والارتقاء، تدفعون فلوسًا وتقبلون الإهانة، تدفعون فلوسًا وتدفعون رشوة لدفع الفلوس؛ هذه مرتبة في إنكار الذات لم يعرفها جنس من البشر قط، اللهم إلا عندما جاء السيد المسيح ... وقال: من ضربك على خدك الأيمن أدِر له خدك الأيسر، منتهى التضحية والصبر والعفو في وقت واحد، صدقني أيها الحمار، إنني الآن أكاد أصيح من شدة الفرح والسعادة والانبساط، لقد عثرت بك على كنز لا يفنى، وسأفتح لجنسك فتحًا جديدًا في مجال الجغرافيا والتاريخ ... والكيمياء أيضًا؛ باعتبار أن الفساء الذي لم تتوصلوا إلى طريقةٍ لتوصيله إلى القِربة ... مادة كيماوية غازية، ومع ذلك يمكن لو حدث لقاء بين الحضارتين، حضارتنا وحضارتكم، الوصول إلى حل أمْثَل للمشكلة كلها؛ نوصل لكم الفساء إلى القربة، ونخترع لكم أداةً تحملها وتدور بها على الأسواق، وعندئذٍ لا يكون هناك حاجة للسؤال؛ لأن الأداة التي سنقوم باختراعها لا تصلي، وهي لذلك لا تحتاج إلى وضوء، وهكذا لا يكون للسؤال أي محل من الإعراب.

وهتفت من أعماقي: يا بنت المديوبة، عثرت على حل المشكلة التي أرهقتنا كل هذه القرون. صحيح لماذا يحمل الإنسان قربة فساء ويدور بها على الأسواق؟ لماذا لا يحملها حمار، أو جمل، أو جحش، أو سيارة جيب من النوع الذي استعمله الرواد في غزو القمر؟ أخيرًا آن لنا أن نفطر ونشرب الشاي، ثم بعد ذلك نعود إلى الحكايات والروايات، وما أكثرها في بلاد العالم الحميري!

١٩٩٠/١/١

أكلنا هو نفطنا

من الورقة إلى الدوسرة إلى الطاجن

استيقظت البنت في الصباح مجبورة ومسرورة، وقد أكلتْ حتى شبعت، وقالت وهي تتقصع وتتمطع: حدِّثني يا حماري الوحشي عن القضايا الفكرية والفقهية الأخرى، التي تشغل بال علمائكم وتضيق بها صدور فقهائكم، قلت: الواقع، أيتها البنت المتكركرة، أن لدينا مسائل خطيرة ومشاكل كبيرة، ولكن علماءنا الأفاضل لا تفوتهم واردة ولا شاردة، وأخطر مشاكلنا الآن هي الذبابة، ولكن الحل جاء على لسان شيخ العلماء وفي التلفزيون، وقد أفتى، أكرمه الله، أن الذبابة إذا غمست جناحها في طعام وجب على الذي يأكل أن يغمس جناحها الآخر؛ لأن في أحد جناحيها داءً وفي الآخر دواء!

قالت: غريبة ... وهل لا يزال عندكم ذباب؟ قلت: الذباب عندنا ثروة قومية، ونحن نحافظ على الذباب باعتباره أرواحًا خلقها الله، ونحن لا نقتل نفسًا بغير ذنب!

قالت: ولكن الذباب انقرض من معظم أنحاء العالم، عندنا في أوروبا لا يوجد ذباب إلا في الأماكن القذرة، وفي الصين لا توجد ذبابة، وفي اليابان من يقتل ذبابة دخل الجنة وعلى رأسه قنديل، وقيل: قنديلان!

قلت: لأنكم لم تدركوا الحكمة من وجود الذباب؛ إن في بلادنا مثلًا ذبابة مستوظفة في التليفزيون، وهي تظهر دائمًا مع كل متحدث ومع كل ضيف ومع كل مطرب، ولقد اعتاد عليها المتفرجون وأَلِفوها؛ لدرجة أن المشاهدين إذا افتقدوها لحظةً، أدركوا أن الجهاز أصابه عطل فني أو خلل هندسي، ولو لم يكن الذباب في بلادنا، لَما بدت لنا عظمة الخالق في وفرة وروعة الألوان التي اختص الله بها الذباب دون خلق الله. ولو أننا، يا ست يا حلوة،

نهجنا على دربكم ونسجنا على منوالكم وقضينا على الذباب في بلادنا، فكيف كنا نستطيع أن نغمس جناحها الآخر في الطعام لو أنها غمست جناحها الأول؟

قالت: وهل لا تزالون تناقشون أمور الذبابة حتى الآن؟

قلت: لا بالطبع ... هذه كلها أمور ثانوية، أما الأمر الرئيسي الذي يشغلنا الآن، فهو أمر على جانبٍ عظيم من الخطورة لم نصل فيه إلى حل بعد، ولا أعتقد أننا سنفعل ذلك في المستقبل القريب.

قالت: فهمت، لا بد أنه موضوع الطاقة الذي يشغلكم، إنه شغل العالم الشاغل الآن.

قلت: بالعكس، هذا موضوع ثانوي في بلادنا وهايف وعلى الهامش، إن الطاقة متوافرة والحمد لله، ونحن نستخدمها في تشغيل السيارات الكاديلاك والسيارات الرولزرويس، وأنتم تزودون سياراتكم باللتر، ونحن نصب فيها البنزين حتى يسيل، ونقول في بعض الأماكن: إترس، وفي بعض الأماكن: زوِّد (بتشديد الواو) وفي بعض الأماكن: فوِّل (أيضًا بتشديد الواو)، وفي بعض الأماكن: إملا، وفي كل الأماكن نحن نصب البنزين في السيارة حتى يفيض على الأرض، تمامًا كما كنا نصب الخل في الزيت منذ ألف عام، والنتيجة أن ما تشربه الأرض من البنزين أضعاف ما تشربه السيارات.

قالت: ولكن لماذا؟

قلت: مجرد وجاهة ومظاهر ونفخة كدابة واستعراض لقدرة الجيب والرصيد!

قالت: غريبة ... ولماذا لا تقتصدون في الطاقة وتحرصون عليها.

قلت: لأن الطاقة الوحيدة التي نحرص عليها هي طاقة فحولتنا، ونحن نستورد من المقويات أضعاف ما نستورد من اليورانيوم، وأغلب إعلاناتنا عن كيف تستعيد رجولتك وكيف يستعيد الشيخ صباه!

قالت: واضح يا مضروب أن الطاقة عندكم متوافرة؛ فأنت رغم أن شكلك عدمان وصدمان، إلا أنك ولا المرحوم ليستون على حلقات النزال.

قلت: أنا أيضًا حمار وأعيش في العصر الحميري، وأنا على رأي الشاعر:

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وهكذا ترينَ مني حمارًا أعيش، حمارًا أتصرف، عن غذاء ملكة النحل أبحث في الصباح، وهمومنا كلها تدور حول بطوننا، وكل ما يعنينا هو الطاقة التي تساعدنا على

المناكشة والمناغشة والهزار! والأمر هنا يختلف بيننا وبينكم؛ لأنكم ربما اهتممتم بأمور الطاقة لتشغيل موتوراتكم، ومواصلة العمل في مصانعكم، وزيادة الإنتاج في معاملكم، أما نحن فأغلب المصانع عندنا هي محلات ويمبي، وكل الموتورات هي ثلاجات وبوتاجازات وكاديلاكات، وكل معاملنا هي للطرشي والجبنة والعرقي الممتاز.

قالت: الآن فهمت لماذا أنتم هكذا فحول، هكذا عجول، هكذا تيران، أكلكم هو نفطكم؛ لزوم تشغيل الموتورات داخل أجسامكم، يا بختكم!

قلت: أما أكلنا الذي وصفتِه بأنه نفطنا، فهو كذلك طواجن، من غير مؤاخذة، كسفينة نوح فيها من كل صنف زوجين، بصل بالشِّوال، وتوم بالأقة، ولحم ملبِّس وطماطم معصورة، وطماطم ترانشات وفلفل أخضر بارد وفلفل أخضر حراق، وفي الطاجن قنطار توابل؛ حَب الهال، جوزة الطيب، كاري، بهارات، فلفل أسود بالحفان، زعتر وقرنفل، لا بأس من وجود عود نعناع في الطاجن حتى تستقيم الأحوال، إذا أكل منه واحد أوروبي ذهب إلى المستشفى في الحال، وإذا وصلت روائحه إلى خياشيم واحد خواجة احتاج إلى غرفة الإنعاش، وربما بقي فيها لمدة عام، ولكن الراجل عندنا يسفح الطاجن ويتحسس كرشه ويتجشأ ويطلق ما شاء من الغازات من ذوات المشموم وذوات المسموع، ويقول: هل من مزيد! وعندنا ورقة لحمة يختلط فيها الورق باللحم بالعظم بقطع الخضار المشكل، وهي أكلة من اختراع بلاد نيام نيام؛ لأن من يأكل ورقة لحم في عز شهر طوبة، يسقط نائمًا على الفور، وقد تمتد نومته، كأهل الكهف، إلى مائة عام، عندنا الدوسرة؛ وهي علبة أول شروطها أن تكون بلا لحام، وهو نوع من العلب منتشر في بلادكم ومستخدم في تعبئة البسكويت والحلويات، ولكننا نستخدم الدوسرة في صنع أكلات لو عرفها العرب أيام زمان، لما كان هناك حرب البسوس ولا حرب داحس والغبراء؛ نضع دكر البط المزغَّط في الدوسرة، ونصب في العلبة رطلين سمن بلدي من أفخر الأصناف وعشر دست من فصوص التوم وحفنة فلفل أسود وعشر حبات من جوز الطيب، ثم نضع العلبة على باب الفرن لكي تنضج على نار خفيفة، وقد يستغرق نضجها عدة أيام، وآه لو التهمها سبع ضارٍ من سباع الغاب، إذن لأصابه الوخم، ونسي طبيعته المتوحشة، ونام في الغابة، وربما أكله ذئب صايع أو كلب جائع أو ضبع جربان.

تأوهت البنت وتنهدت وقالت: يا حظ نسوانكم كما قلت من قبل.

قلت: أما عن نسواننا فهم آخر غُلب وآخر كَرب، والسبب أن نسواننا سمراوات ونحن نعشق اللحم الأبيض، ومن أجل امرأة أوروبية أو أمريكية أو حتى أسترالية، فنحن نلطم الخدود ونشق الجيوب ونبكي على الأطلال، ويتنازل الواحد منا عن كل شيء في نظير وصال مع امرأةٍ لحمها أبيض كالقشطة، عيونها زرق كالبحر، شعرها أصفر كالرمال الصحراء ... فاللحم الأبيض هو غايتنا.

قالت وهي تغمز بعينيها: سرحت بنا يا ملعون في متاهات وبحور، وفتحت نفسي يا مضروب للمناغشة، فهل ذكرت لي بسرعة عن أخطر الأمور التي تشغل بال بعض علمائكم ويضيق بها صدور بعض فقهائكم؟ لقد حوَّمت حول الموضوع، ولكنك لم تتعرض إلا لموضوع الذبابة.

قلت: غير موضوع الذبابة هناك موضوع الدخان؛ فلقد وقف أحد علمائنا ذات عمرة وقال للحاضرين: مِن الآن وحتى تنتهي العمرة، سيكون على جانبَي كل منكم ملكان من السماء، وحيث إن ملائكة السماء لا يدخنون ويكرهون الدخان، فسيُحرم المدخن من رفقة الملائكة، ولن تستجيب السماء لدعواته إلى خالق الأكوان.

قالت البنت وقد اندهشت: لماذا اثنان من الملائكة وليس ملاكًا واحدًا؟

قلت: يبدو أن العالم تبعنا لديه تصور بأن هناك عمالة زائدة بين الملائكة المكلفين برفع الدعوات إلى السماء.

قالت البنت: وما الذي حدث بعد ذلك؟

قلت: قطع أغلب الفوج رحلة العمرة وعاد من حيث أتى، ما دامت دعواته لن تستجاب فما جدوى العمرة!

قالت: ولكن لماذا قال العالم هذا الكلام؟ هل يشتغل لحساب شركة تأمين، وتريد، من وراء فتاوى العالم، أن تجبر الناس على ترك التدخين؛ حتى لا تدفع دم قلبها للضحايا الذين يسقطون كل عام تحت تأثير النيكوتين؟

قلت: في الحقيقة ... بعض علمائنا يشتغلون في شركات توظيف الأموال.

قالت البنت: غريبة! وهل الأموال تتوظف؟

قلت: ولم لا؟ الأموال تتوظف وتترقى وتتدرج في الوظائف حتى تصل إلى أعلى مربوط، ولكن الذي حدث في بلادنا؛ أنها بعد أن ترقَّت درجةً ودرجتين فُصلت من الوظيفة، وخسر الناس أموالهم على يد عكاريت أطلقوا الذقون حتى الركبتين، وارتدوا الثوب حاسرًا سُنةً عن السلف الصالح، ووضعوا الزبيب على الجباه علامةَ الركوع والسجود، مع أن بعضهم

لا يحفظ من القرآن سورة واحدة، ولا يعرف من الأحاديث إلا ما هو منحول وتفصيل؛ للضحك على ذقون الفقراء، أشهرهم في بلادنا كان اسمه الريان، وهو عالم في اللغات، ويتكلم الإنجليزية على طريقة عمال الأورنس الذين كانوا يعملون في الكامبات، وبمساعدة اثنين أو ثلاثة من العلماء، أكلوا أموال الناس بالباطل، وتسبَّبوا في خراب البيوت، وكانوا السبب المباشر في انتحار العشرات، الذين آثروا الموت فرارًا من الفضيحة والجوع ووقف الحال.

قالت البنت وقد شهقت من الذعر: ولكن ما دخل العلماء في هذا الأمر؟

قلت: لقد أفتوا بأن وضع الأموال في البنوك حرام، وقالوا: إن فوائد البنوك ربا، من يقبله يذهب إلى نار جهنم وبئس القرار.

قالت: وأين يضع الناس الفلوس إذا امتنعوا عن وضعها في البنوك؟

قلت: في جيوب الريان متسَع لفلوس الناس.

قالت: وهل يضعونها بدون فوائد أو أرباح؟

قلت: لا ... أحيانًا يأخذون عليها مرابحة، وأحيانًا يأخذون عنها بركة.

قالت: ولكنها أرباح على كل حال.

قلت: الأرباح حرام، ولكن هذه مرابحة.

قالت: أرباح أو مرابحة، لا فرق ... فالفلوس تربح أو تتكاثر، سيَّان، وهي لا تربح ولا تتكاثر إلا بتشغيلها في عملٍ ما ... فما هي الأشغال التي كان يقوم بها السيد الريان؟

قلت: كان لديه مطعم سمك ومحل جزَّار ومحطة بنزين ودكان كباب ومسمط تحول بقدرة قادر إلى محل لبيع المجوهرات.

قالت: إذن كان يشتغل في عدة مئات من الجنيهات.

قلت: بل عدة مئات من الملايين.

قالت: ملايين في مطعم سمك ومحل كباب؟

قلت: هذا هو الذي حصل يا ست يا خواجاية وكان السبب في خراب بيوت الناس.

قالت: ولكن هذا في بلادنا اسمه نصب، ومرتكب هذا الفعل اسمه نصاب.

قلت: حاشا لله! النصاب في الحقيقة هو الذي أفتى بأن البنوك حرام والفائدة حرام؛ لأنه هو الذي جعل الناس تمسك فلوسها عن البنوك وتجري بها نحو الريان، والريان رجل ذكي وانتهز الفرصة، فوظَّف عدة مئات من الجنيهات لإدارة المحلات، وتفرغ بعد ذلك لمزاجه؛ يتزوج كل فترة شابة مليحة، ويكركر أحيانًا أصنافًا باهرة من أصناف المزاج،

ويوزع بعض الفتات على أصحاب المال، ويوزع البركة على أصحاب الفتاوى، وما تبقى لإعلانات التليفزيون والجرائد والمجلات.

قالت: والنتيجة؟

قلت: ضرب الرجل بمبة في النهاية وانكشف ستره، فإذا به مفلس وعدمان، وتبدَّدت الفلوس يا وِلداه، وضاع شقا العمر كله بين مزاج الريان وبركة أصحاب الفتاوى وقعدات الخلَّان.

صمتت البنت فترةً ثم صرخت وكأنها اكتشفت سرًّا، وقالت: هذا الريان رجل أعمال له باع طويل في عالم الاقتصاد، لقد امتص الفلوس الزائدة في السوق وقضى على التضخم بطريقةٍ مبتكرة للغاية، ولا بد من توجيه الشكر إليه على كل حال.

قلت: التضخم الذي حدث كان من نصيب المودِعين، تضخُّم في القلب أحيانًا وفي الطحال أغلب الأحيان.

قالت البنت الخواجاية: ولكن هؤلاء المودعين يستحقون ما جرى لهم، فهم الذين أعطوه النقود بدون ضمانات.

قلت: وهل نلوم الريفي الساذج إذا وقع في يد عصابة نصابين من محترفي الإجرام؟

قالت: وهل كل هؤلاء الضحايا أصحاب كل هذه المئات من الملايين؛ هل كلهم سُذج ومن أهالي الريف؟

قلت: بل بينهم أطباء وصحفيون ومحامون ومديرو إدارات ومديرو عموم.

قالت: إذن ذنبهم على جنبهم.

قلت: أيتها البنت الخواجاية، لا تفتين بما لا تدرين، فنحن أبناء العصر الحميري نتبع أوامر السماء.

قالت: وهل أمرتكم السماء بأن تعطوا أموالكم للريان؟

قلت: هي في الحقيقة لم تأمرنا، ولكن الذين أمرونا هم بعض السادة العلماء الأجلاء من أصحاب البركة.

قالت: وهؤلاء العلماء عِلمهم في أي فرعٍ من فروع الاقتصاد؟

قلت: لا علاقة لهم بالاقتصاد، ولا حتى بالتدبير المنزلي، ولكنهم علماء في طريقة الاستنجاء، ومختصون في معرفة نوع الملائكة وهل هم ذكور أم إناث.

قالت: وما علاقة هذا العلم بأعمال البنوك وخفايا الاقتصاد؟

قلت: عندنا في العصر الحميري البساط أحمدي، وكل شيء ممكن عندنا ومسموح ومباح؛ كابتن كورة يتحول إلى ممثل، ممثل يصبح مخرجًا، نصاب يتحول إلى صاحب

شركات، مخرج يقوم بمهمة الإفتاء، كمساري يتحول إلى مؤرخ، مناضل يتفرغ لأعمال الكهرباء، شاب صغير لم تنبت لحيته بعد ... ينصِّب نفسه أميرًا للإسلام، الحياة عندنا سهلة، والسكك كلها مفتوحة وسالكة، ومجتمعنا يشبه مولد سيدي حمزة، وكل واحد على كيفه؛ يصرخ، يشتم، يقرأ، يلحن، يغني، يتاجر، يرقص، ينشل، المهم أن المولد شغَّال، والنور مُضاء، والأمور عال العال.

قالت: إذن أنتم تعيشون في فرح دائم، وفي حالة من الانبساط على الدوام.

قلت: المظهر العام كما تقولين، ولكنك لو دققت النظر في وجه كل واحدٍ موجود في المولد، فسوف تكتشفين مدى التعاسة التي ترتسم على الوجوه؛ أضواء المولد المبهرة تخفي الهالات السوداء حول العيون، ودقات الطبول تطغى على زقزقة عصافير البطون، هو مولد فعلًا، وفي المولد ذبائح ذُبحت وأناجر فتَّة وبراميل طرشي وموائد مُدت، ولكن الذي حدث أن الذين أكلوا هم الفهلوية والنصابون، وتمكَّن أيضًا من الوصول إلى الموائد الممدودة بعض أصحاب العضلات المفتولة وبعض أصحاب الحيل، أما بقية أهل المولد فلم تصل أيديهم إلى الأناجر، ولم تتذوق أفواههم طعم الفتة، صحيح أنهم شموا رائحة الطعام ولكنهم لم يأكلوه.

قالت البنت وقد سرحت بعيدًا: هؤلاء ذنبهم على جنبهم؛ لأنك تعلم أن الحياة للأقوى، وفي الغابة لا يشبع إلا المفترس، ولا يأكل إلا القادر على القنص، أما الوحش المريض والتعبان والعجوز وفاقد المخالب والأنياب، فلا مكان له على المائدة، وليس له من الوجبة نصيب.

قلت: هذا في الغابة يا خواجاية، أما في المجتمع.

قاطعتني البنت وزغدتني في صدري وقالت: لم يعد هناك فرق.

قلت: هل عندكم نفس الشيء؟

قالت: عندنا أبشع؛ لأنك لكي تحصل على الفتات، فلا بد أن تظل مربوطًا في العجلة، لا يفكون وثاقك إلا عند النوم، عندكم أرحم أيها الحمار الصغير؛ لأنكم قد لا تأكلون، ولكنكم لا تعملون أيضًا ... والأكل عندنا ليس لحشو المعدة، ولكن لإمداد الجسم بالطاقة ليكون قادرًا على الإنتاج، وما دمتم لا تعملون، فما حاجتكم إلى الطعام؟ خبرني!

وبعد أن قالت الخواجاية هذا الكلام، أمسكت عن التعليق وسرحت وراء الغمام، فنظرت إليَّ البنت نظرةً نارية، وقالت: شكلك وأنت ساكت يثبت فعلًا أنك من فصيلة الحمار.

وعندما حاولت أن أنكشها، صدتني وردتني قائلة: ولكنك لم تقُل لي يا حماري الصغير، هل كل أبناء العصر الحميري حمير مثلك؟ أليس عندكم ألقاب ورتب ودرجات؟ قلت: هذا حديث يطول شرحه يا ست يا خواجاية، فدعي هذا الحديث إلى الغد.

١/٢/١٩٩٠م

فخامة الجنرال إليكتريك!

استيقظت البنت زعلانة وقرفانة ... كانت تطمع في ليلة حمراء فإذا بها ليلة سوداء، ولكنها مع ذلك تقصعت وتمطعت واقتربت من العبد لله، وقالت: لا تزعل يا حماري الصغير، فبالرغم من أنك حمار، إلا أنك أحيانًا تكون عصبيًّا للغاية، وهي مسألة غريبة، حمار وعصبي! هذا هو المستحيل، وعندما أشحت بوجهي عن البنت الفرنساوية، قالت: دعنا الآن من أمور الغرام والدلال، وهيا من الآن نستأنف العمل، وقل لي أيها الحمار: هل تهتمون في العصر الحميري بالمناصب والألقاب، أم أنكم في العصر الحميري تطبقون نظرية «الإسطبلزم»، ولا تهتمون بالمناصب والألقاب؟

قلت: بالعكس، بل إننا أكثر أهل الأرض ألقابًا ونياشين، فلدينا الأوحد والمؤمن والمجاهد الأكبر والأخ القائد والأخ المناضل، ولدينا مشايخ على قفا من يشيل، أغلب عساكرهم من الأجانب، ومع ذلك يصدرون كل يوم بيانات مشتركة يهددون فيها الاستعمار، ولدينا سيادة الأمين العام؛ وهو رجل في حاله وعلى قده، ومع ذلك فهو يعلن بمناسبة ومن غير مناسبة بداية الزحف المقدس على إسرائيل!

قالت البنت تستفسر: وهل سيادة الأمين جنرال يفهم في المعارك والحروب؟

قلت: السيد الأمين لا يحمل رتبة، ولكنه في الحروب جنرال، أعظم من جنرال موتورز وأخطر من جنرال إليكتريك، وسلفه كان صاحب الكلمة المشهورة عشيةَ حرب فلسطين الأولى: تكلم السيف فاسكت أيها القلم، وسكت القلم ولكن السيف الوحيد الذي تكلم كان سيف الإسلام عبد الله.

قالت: وهل سيف الإسلام عبد الله هذا ماركة سلاح؟

قلت: بل ماركة بني آدمين، فلدينا قرية من أعمال مركز الباجور-منوفية، اسمها اليمن، كان أهل العمدة فيها يُدعون جميعًا سيوف الإسلام؛ سيف الإسلام عبد الله، وسيف الإسلام البدر، وسيف الإسلام الحسن، وسيف الإسلام أحمد، وسيف الإسلام يحيى.

قالت البنت: إذن هي أسرة مباركة، وما داموا سيوفًا للإسلام فهم سيوف للحق والبر والتقوى.

قلت: بالعكس يا خواجاية، لقد كانوا سيوفًا مغشوشة وصدئة! وكانوا سيوفًا على شعبهم وعارًا على أمتهم.

قالت: ولكن هل لديكم مارشالات وجنرالات؟

قلت: خذي عندك في حرب ١٩٤٨م كان على الجبهة ثمانية مارشالات عظام؛ المارشال أبو حنيك؛ وهو مارشال إنجليزي دخل في العصر الحميري واستحمر، وكان هناك جنرال حيدر باشا والجنرال الطاسان، وكان إلى جانب هؤلاء عدد من الجنرالات ... الجنرال قتَّال والجنرال جبار والجنرال جزار، وكان كل منهم يحمل على صدره نياشين أضعاف أضعاف ما كان يحمل رومل ومونتجمري، ونوع قماش بدلة كل منهم لم يحلم به المأسوف على روحه فون رونشتيد، وفي الماضي القريب كان لدينا مارشال المارشالات، وكان يرتدي أحيانًا بدلة الجيش مع أنه لم يدخل معركة في حياته، وأحيانًا يرتدي بدلة الطيران مع أنه لم يركب في حياته إلا طائرة الخطوط البريطانية، وأحيانًا يرتدي بدلة البحرية مع أنه لم يركب في حياته إلا قارب الصيد والمعدِّية.

قالت: ولكن أليس لديكم قانون ينظم مثل هذه الأمور ويضع كل شيء في مكانه الطبيعي؟

قلت: لدينا في العصر الحميري قانون اسمه خد راحتك، ولدينا قانون آخر اسمه البساط أحمدي، وفي بلادنا نكتة مشهورة خلاصتها: أن رجلًا كان يجلس منهمكًا في تحرير خطاب، فسأله ابنه: لمن تكتب هذا الخطاب؟ فأجابه الوالد: إنني أكتب لعمك، وقال الولد: ولكنك لا تعرف الكتابة، فأجاب الوالد: وعمك أيضًا لا يعرف القراءة، وما دام الشيء من بحره، فلا بأس أن يكون أي شيء مثل كل شيء، ولا بأس أن يكون أي أحد فينا مارشالًا للبحر والجو والأرض والفضاء أيضًا!

قالت البنت وهي ترعش حاجبيها: طيب، ما دام مارشال المارشالات لا يعجبكم، لماذا لا تفصلونه وتعينون مارشالًا غيره؟

قلت لها وأنا أغلي: عيبك يا خواجاية، رغم الدرس والعِشرة والعيش والملح، أنك لا تفهمين العصر الحميري ولا تحاولين فهمه، ولماذا نفصِله ولدينا من المارشالات أضعاف ما أنجبت كل الأمم؟

وقالت البنت وهي تصرخ: ياه ... لديكم كل هذا العدد الوفير من المارشالات!

قلت: نعم، وألف مليون مرة نعم، بل إننا بعد النكسة ...

قالت: نكسة! أي نكسة؟

قلت: هي حرب انتهت بهزيمتنا وانتصار العدو الغاصب، بعد عدوانٍ غاشم.

قالت: إذن هي هزيمة.

قلت: نعم ولا في الوقت نفسه؛ فنحن في العصر الحميري نفضِّل استخدام الكنية على الاسم نفسه ... فإسماعيل نسميه أبو السباع، ومحمود نسميه أبو حنفي وأحيانًا أبو طه، وسليمان نسميه أبو داود، وإبراهيم نسميه أبو خليل، ويوسف نسميه أبو حجاج ... والهزيمة نسميها نكسة.

قالت: ولكنك تقول إنكم انهزمتم بعد عدوان غاشم.

قلت: نعم، وهذا الوصف بالنص كما جاء في بياناتنا الحربية.

قالت البنت وهي تمصمص شفتيها: وهل هناك عدوان لطيف وعدوان طيب؟ ما دام عدوانًا، فلا بد أن يكون عدوانًا غادرًا وغاشمًا ولئيمًا أيضًا.

قلت: ربما هذا في بلادكم؛ حيث الأمور واضحة والأسماء محددة، ولكن في بلادنا الأمر يختلف؛ فالفول المدمس يسمونه اللوز، وأحقر أنواع اللحوم يسمونها الحلويات، والفجل يسمونه الورور، والهزيمة اسمها النكسة.

قالت: وماذا فعلتم بعد النكسة؟

قلت: فصلنا بعد النكسة عشرين مارشالًا.

قالت: يا خبر أسود! عشرون مارشالًا مرة واحدة! وإن فرنسا نفسها لم يأت فيها مارشال بعد بيتان، وألمانيا نفسها كان فيها خمسة مارشالات في زمن هتلر، فكيف تفصلون عشرين مارشالًا في ضربة واحدة؟ ألا تعرفون أن رتبة المارشال لا تعطى إلا لمن أضاف للفن العسكري إضافة جديدة، وأن كل مارشال يبقى مارشالًا حتى الموت، إذا نشبت الحرب يُستدعى على الفور إلى الخدمة حتى ولو كان في أرذل العمر.

قلت: الحمد لله، لدينا الآن مارشالات يقضون وقتهم في لعب الطاولة، المارشال السلال والمارشال خليفة والمارشال عجنون والمارشال الجمصي، وكان لدينا مارشال اسمه عبد السلام عارف مات في حادث مؤسف، وكان لدينا مارشال اسمه عبد الحكيم عامر انتحر بعد الهزيمة، أقصد بعد النكسة.

قالت: هذا مارشال عظيم، تصرف كما يتصرف المارشال؛ فالمارشال كالقبطان، إذا غرقت السفينة غرق معها.

قلت: ولكن مارشالنا لم ينتحر لهذا السبب، فهو بعد الهزيمة راح يناضل من أجل الاستيلاء على السلطة، ولما فشل انتحر.

قالت البنت: وهل أصبح لديكم الآن مارشالات بعد هؤلاء الذين ماتوا وهؤلاء الذين انتحروا وهؤلاء الذين خرجوا من الخدمة؟

قلت: نعم، وألف مليون مرة نعم ... لدينا من المارشالات على كل لون.

قالت: يا حظكم! وعلى هذا فأنتم ترهبكم الأمم وتخافكم الجيوش وتعمل حسابكم الدول.

قلت: بالعكس يا خواجاية، بل نحن مطمع لكل الدول، وأرضنا العربية محتلة بأحقر عساكر أهل الأرض. صحيحٌ عندنا بقعة من أرضنا شبه مستقلة، وبقعة تقاتل من أجل ذلك، وبقعة مغتصبة، وبقعة لا هي مستقلة ولا هي محتلة، ولكنها شيء، على رأي طه حسين، بينَ بين.

قالت: ولماذا لا تسعون إلى التحرير ولديكم كل هذا العدد الهائل من مارشالات البر والبحر والجو؟

قلت: حاولنا ذلك مرات، وبعد ثلاث حروب مريرة ذهبنا إلى الحرب الرابعة، وخضناها من أجل التحريك.

قالت: تقصد التحرير.

قلت: حاشا لله! بل أقصد التحريك، فقد أردنا فقط أن نحرك القضية؛ لكي تتولى أمريكا بعد ذلك حل القضية بالمناقشة والمناغشة.

قالت: إذن أنتم تريدون شراء قطعة أرض أخرى تضيفونها إلى أرضكم.

قلت: بل نريد استرداد أرضنا التي اغتُصبت منا.

قالت: وهل تسترد الأرض بالمناقشة والمناغشة؟ قلت: حتمًا، فعندما نجلس معًا ونتباوس معًا ونتباحث معًا، وتدور علينا أكواب الشاي وأقداح القهوة، نقسم بالله أن نأخذ غزة، ونخجل من كرم اليهود ونعطيهم أريحا، نقسم بالطلاق أن نأخذ القدس لكي نذهب إليها ونصلي، ويرق قلبنا فنعطي الخليج لليهود لكي يذهبوا أيضًا إليها ويصلُّوا، وهكذا تُحل القضية في الصينية، وتعالَج القضايا في المرايا وتُعزف المزيكا في البوليتيكا، وقدَّامك سكة سفر قولي إن شاء الله.

قالت البنت وهي تغالب النعاس: طيب ومارشال البر والجو والبحر ما حاجتكم إليه إذا كانت الأمور هكذا سهلة هكذا وهلة؟

قلت: لأن لدينا أعمالًا أخرى ... صحيح ليست محورية، ولكنها ضرورية، فمع أن عدونا الحقيقي معروف، والطريق إليه واضح ومرصوف، لكننا بعد أن انتكسنا، رحنا نجرب مارشالاتنا في اتجاهاتٍ أخرى غير الاتجاه الذي ينبغي أن نتجه إليه؛ أحد مارشالاتنا عمل خلفًا در واتجه إلى لبنان، ومارشال آخر عمل خلفًا در واتجه شرقًا، ومع أن طريقه الطبيعي أن يتجه غربًا، ومارشال ثالث عمل خلفًا در وتوغل في أفريقيا، ولدينا حروب محلية صنع بلدنا، القتلى فيها من أبنائنا، والأسرى فيها من أولادنا، ونحن فيها المنتصرون والمنهزمون؛ حزب الله ضد حزب الملائكة، ومنظمة أمل ضد منظمة حنان، وجعجع ضد عون، ولدينا في البقاع ألف قائد مقاتل، ويبدو أنهم اكتشفوا أن قتال الأعداء صعب، فقاتلوا أنفسهم؛ أبو نضال ضد أبو كفاح، وأبو موسى ضد أبو عيسى، وأبو خنجر ضد أبو مطوة قرن غزال، وأبو سكين ضد أبو ساطور، وهم يكِرُّون داخل بلادنا ويفرون داخلها أيضًا، ومدننا هي ساحة معاركهم، وبيوتنا على رأس الأهداف المطلوب تدميرها، والمعارك في الشوارع مستمرة، وإطلاق النار عَمَّال على بطَّال، والثورة قايمة، والكفاح دوار!

قالت البنت الفرنساوية وهي تستمع في شغفٍ وتنصِت في إعجاب: وهل هذه المعارك للتدريب تمهيدًا لقتال الأعداء؟

قلت: بل هي الهدف، غاية المراد من رب العباد ... ولدينا الآن، والحمد لله، أسرى من بيروت الغربية في بيروت الشرقية، وأسرى من بيروت الشرقية في البقاع، وأسرى من البقاع في جبل لبنان، وأسرى من جبل لبنان في جبل الدروز، وأسرى من الشوف في طرابلس، وعندما تتطور الحرب بإذن الله، سيكون لدينا أسرى من طرابلس في دمشق، وأسرى من دمشق في بغداد، وأسرى من بغداد في طرابلس الغرب، وأسرى من طرابلس الغرب في تونس الخضراء، وأسرى من تونس الخضراء في الجزائر، وأسرى من الجزائر في المغرب، وأسرى من المغرب في موريتانيا، وأسرى من موريتانيا في عدن، وأسرى من عدن في صنعاء، وأسرى من صنعاء في الصومال!

قالت البنت وقد صعِقتها المفاجأة: ولكنكم بذلك تخلقون واقعًا جغرافيًّا جديدًا.

قلت: بل هي حيلة ذكية لإعادة توزيع السكان؛ فالجزيرة العربية مثلًا مساحتها ملايين الأميال وليس فيها سوى حفنة من السكان، والعراق يتسع لخمسين مليونًا وليس فيه إلا عشرة ملايين نسمة، ومصر يكفيها عشرون مليونًا وفيها الآن خمسون مليون نسمة.

قالت: ولماذا لا يرحل بعضكم بطريقة سلمية بدلًا من الحرب والأَسْر ووقف الحال؟

قلت: لأننا في العصر الحميري لا نجيد إلا الرفس والنطح والاقتحام بغير استئذان، ولأن لدينا حمير حصاوي وحمير أخرى غلبانة من الجوع والضياع، فالانتقال من قرية إلى أخرى يحتاج إلى تأشيرة وأحيانًا يحتاج إلى كفيل؛ ولذلك ترين أن الحروب هي أصلح طريقة لتحقيق الهدف المنشود.

قالت البنت الفرنساوية وقد ساحت وناحت: ولكن من أين لكم كل هذا السلاح الذي تحاربون به بعضكم البعض على مدى الأربع والعشرين ساعة؟

قلت: السلاح عندنا على قفا من يشيل، نستورده بالمليارات من الخارج، ونصنع بعضه بأيدينا، وأغلبه يصدأ لدينا في المخازن؛ لأن حروبنا الأهلية المحدودة ليست في حاجة إلى كل هذا السلاح.

قالت: ولماذا تستوردونه؟

قلت: لأن السلاح كالسفر له سبع فوائد؛ عمولات وسمسارات وسفريات؛ لزوم المعاينة والاختبار والاختيار.

قالت: وهل تشترون صواريخ من النوع متعدد الدرجات؟

قلت: لدينا كل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت؛ لدينا طائرات أواكس من النوع الذي يسمع دبيب النملة في القطب الشمالي، ويرى الغراب النوحي وهو سارح في فضاء الله، وكانت خمس طائرات منها معلقة في الجو عندما خرجت أسراب طائرات من بلاد الأعداء، وقطعت ألفًا وخمسمائة كيلو ووصلت إلى بغداد ونسفت المفاعل الذري العراقي، وعادت في سلام الله وأمانه دون أن تراها الأواكس أو تشعر بوجودها على الإطلاق.

قالت: وهل لديكم مفاعل ذري؟

قلت: بل كان لدينا في يوم من الأيام قبل أن يدمره العدو ويحيله إلى كوم من التراب.

قالت: ولديكم علماء ذرة إذن؟

قلت: لدينا علماء ذرة ربما ضعف علماء فرنسا، ولكن نصفهم هاجر واشتغل عند الأمريكان، والنصف الآخر قتلهم الأعداء واحدًا بعد آخر.

قالت: ولماذا لا تحمون علماءكم حتى لا يقتلهم الأعداء؟

قلت: إننا نحرسهم والأعداء يقتلونهم في نفس الوقت.

قالت: كيف؟

قلت: نحرسهم من الخلف فيقتلوننا من الأمام، نحرسهم من الأمام يقتلونهم من الخلف، نحرسهم من الأمام ومن الخلف فيقتلونهم من الجنب، نحرسهم من الجنب

ونحرسهم من الأمام ومن الخلف، فيقتلونهم من فوق أو من تحت، لم نعد ندري من أين يأتيهم الموت، مع أننا من حولهم، حتى اقتنعنا في النهاية بأنها عين وصابتنا، وأن قتلهم هو نتيجة الحسد والقر؛ ولذلك اقترح بعضنا أن نعلق على المفاعل الذري يفطة «يا ناس يا شر، بطَّلوا قر».

قالت البنت الفرنساوية: وهل نفذتم هذا الاقتراح؟

قلت: في الحقيقة لم ننفذه بعد؛ فقد اعترض البعض على العبارة واقترح بدلًا منها: «ما تبصليش بعينك الرضية، بُص للفلوس اللي مدفوعة فيه».

قالت البنت الفرنساوية: وما الفرق بين العبارتين؟

قلت: بالفعل هناك فرق، وهو فرق رهيب وجوهري، ويتملكك مع الشعور الإنساني في الإحباط اللانهائي الكامن في أغوار النفوس دونما إحساس، فعبارة «يا ناس يا شر، بطلوا قر» فيها فعل أمر، كما أن فيها اتهامًا للناس بأنهم أشرار، وهي أمور لا تتفق مع قيمنا وعاداتنا وحضارتنا التي تمتد في التاريخ إلى سبعة عشر ألف عام، أما «ما تبصليش بعينك الرضية، وبص في الفلوس اللي مدفوعة فيَّه»، فهي عبارة فيها طلب وليس فيها أمر، كما أن بقية العبارة «بص للفلوس اللي مدفوعة فيَّه» تؤكد أننا في عصر الانفتاح، وأن عجلة الإنتاج دوارة كما الكفاح.

قالت البنت الفرنساوية: ولماذا لم تعلقوا هذه العبارات ما دامت أفضل؟

قلت: لأن هناك رأيًا ثالثًا اقترح عبارة «لا يفل الحديد إلا الحديد»، ولكن هذا الرأي وجد معارضةً شديدة، وتصور البعض أنها دعوة للأعداء لكي يأتوا ويهدموا المفاعل الذري تبعنا؛ باعتبار أنه حديد ولا يفلُّه إلا حديد قادم من بلاد الأعداء.

قالت: وماذا فعلتم؟

قلت: لاشيء، ما زلنا نفكر ونفكر، ونفكر ثم نعود لنفكر، ونفكر ثم نتوقف لنفكر، وسيظل التفكير مستمرًّا والنقاش على وِدْنُه، وهل الفرخة قبل البيضة أم البيضة قبل الفرخة؟ وهل الملائكة من صنف الذكور أم أنهم من صنف الإناث؟ وهل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟ وهل الإمام معصوم؟ وهل القرآن مخلوق أم موجود؟

قالت البنت: ثم ماذا بعد ذلك؟

قلت: لا شيء بعد سوى البغبغة والكلام.

قالت: والمفاعل الذري؟

قلت: لقد ضربه الأعداء فاستحال إلى كوم من التراب.

قالت: إذن فلا داعي.
قلت: بالطبع لا داعي لليفطة.
قالت: ولماذا النقاش إذن حول اليفطة؟
قلت: لأن النقاش هو غايتنا، والموت في سبيل الكلام هو أسمى أمانينا.
قالت: إذن كفَّ عن الكلام أيها الحمار، وتعالَ بنا إلى المناغشة والغرام.

مارس ١٩٩٠م

حمير ... ولكن كرماء

قالت البنت الفرنساوية وهي تسحبني من يدي في طريقنا إلى الريف الفرنساوي: في حديثك عن بلادك أيها الحمار الطيب ذكرت الصحراء أكثر من مائة مرة ... فهل أفهم أن بلادكم كلها صحراء عجفاء شمطاء وضامرة؟

قلت: الواقع أيتها، الست الخواجاية، أن الصحراء في بلادنا لها مكانة، وتسعون في المائة من بلادنا صحراوات، ونحن نحب الصحراء ونعشقها لدرجة أننا أنشأنا جمهورية جديدة اسمها الجمهورية الصحراوية؛ تعبيرًا عن حبنا للصحراء واحترامًا لها!

وشاعرنا الأكبر عمك أبو الطيب المتنبي قال ذات مساء وهو هارب من حاكم إلى حاكم آخر:

أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدًا دونها بيد

وقد ذكر الصحراء كما ترين ثلاث مرات في بيتٍ واحد، والصحراء لها عندنا أكثر من اسم؛ فاسمها في شهادة الميلاد الصحراء، واسم الدلع البيداء، واسم الشهرة القفر، ولها أسماء أخرى؛ كالجبَّانة والفيافي والخلاء.

ولكن هذه الصحراء نفسها هي التي صنعت أمجادنا في أول الأمر في ذلك الزمن المجيد البعيد، وقبل أن نتحول من بني آدمين إلى حمير. أنجبت الصحراء كل أبطالنا الميامين من أول عنترة العبسي إلى خالد بن الوليد إلى عمرو بن العاص إلى سعد بن أبي وقاص إلى أبي عبيدة الجراح إلى موسى بن نصير إلى طارق بن زياد إلى صقر قريش.

وكانت هذه الصحراء هي السبب في تفتيح العقول وتفتُّح العيون معًا؛ ولأنه لا حاجب ولا حاجز بين الصحراء والسماء، فقد سرحت عقول أجدادنا في الكون ومنشئه والحياة

وأصلها، وبعد أن حارت الأفهام والألباب، جاء نداء السماء ليهدي المتعبين والحيارى، وكانت الرسالات السماوية والإرشادات الإلهية ... ولأن كل شيء كان عندنا واضحًا ومبينًا ... فقد جاءت الإشارات واضحةً هي الأخرى والعلامات بارزة.

ومع أن مبعوث السماء نشأ في أعماق الصحراء، إلا أنه أول من وضع للناس قانون الإجراءات، فلكي تكون التهمة صحيحة لا بد أن تكون الإجراءات صحيحة، وإلا سقطت التهمة ولو كان المتهم مدانًا بالفعل. ذلك كان زمانًا ومضى، ولكن بعد دخولنا في العصر الحميري ... صار مِن حق كل أمير جماعة له سكسوكة أن يقبض على من يشاء وقت أن يشاء، وأن يعاقبه على ما يشاء وقت أن يشاء، وأن يعاقبه بالشبهات وأحيانًا بالشائعات.

ولدينا الآن جماعات تنتسب زورًا إلى السماء، تحكم بالكفر على جميع الناس، وتحتكر الإيمان لأنصارها، مع أن مبعوث السماء نفسه عفا عن الطلقاء وأعلن قبوله لهم في ملكوت السماوات، وهم الذين حاربوه واضطهدوه وطردوه وطاردوه، ولكن رسول السماوات نفسه عفا عنهم؛ لأن رحمة الله واسعة، وملكوته يتسع للجميع.

قالت البنت الفرنساوية وهي تشهق: هل هذه الجماعات وهؤلاء الأمراء هم كل المشتغلين بالدين في الوقت الحاضر؟

قلت: لا، هناك كثيرون. إذا كان هؤلاء حولوا الشريعة السمحاء إلى مطواة قرن غزال وإلى عبوة متفجرات، ففي المقابل يوجد رجال دين رسميون بعضهم حوَّل الشريعة إلى بحرٍ من الجهل، وبعضهم حوَّلها إلى وسيلة للاسترزاق. أما الجهلاء فقد أعلن أحدهم منذ فترة بأنه التقى برئيس الجن، وأنه تاب على يديه، وعقد قِرانه على جنِّية مسلمة.

قالت البنت الفرنساوية: وهل هناك جن يهودي وجن مسيحي وجن بوذي وجن يعبد النار؟

قلت: لم يذكر لنا العالم إياه سوى أنه التقى بالجِني الكافر، وأن الجني الكافر اهتدى بعد المقابلة واستتاب.

قالت البنت: ألم يلتقط عالِمُكم الفاضل صورًا فوتوغرافية للجني التائب أو سجَّل المقابلة على شريط فيديو؟

قلت: عالمنا الفاضل لم يفعل ذلك؛ لأن التصوير عنده حرام، والفيديو عنده أم الكبائر؛ ولذلك فهو يحرِّم على الناس كل شيء لم يكن مستخدمًا أيام الرسول.

قالت: إذن هو يرتدي ثيابًا بدائية، وينتعل نعلًا من جلود الأغنام، ويقطع المسافات سيرًا على قدميه!

قلت: بالعكس يا خواجاية؛ فكل أحذيته صنع بالي السويسري، وثيابه بعضها من صنع اليابان وبعضها من أفخر مصانع الصوف في لانكشير، ولديه حسابات في البنوك، ودفتر شيكاته أطول من كشف ذنوب العصاة والمذنبين، ولديه تليفون دولي وتلكس وفاكس.

قالت البنت: ولماذا يمنع استخدام كل الآلات والاختراعات التي لم تكن موجودة في زمن الرسول؟

قلت: لم يسأله أحد ... وحتى إذا سأله أحدٌ فهو لن يجيب؛ لأنه هو الوحيد المسئول عن توضيح ما هو حلال وما هو حرام، هو الوحيد الذي يعرف الفرق بين الحق والباطل؛ كما أنه الوحيد المكلَّف بتوصيل الرسالة في هذا الزمن الطيب. على العموم هذه مسائل جرنا إليها حديثنا عن الصحراء وكيف أننا نموت في دباديبها!

ولكن ليس معنى ذلك أننا بدو نسكن في بيداء، بل عندنا مزارع ولا مزارع كاليفورنيا، ومدن ولا مدن أوروبا، وشوارع ولا شوارع النمسا، وساحات ولا ساحات الكونكورد في باريس، وعندنا حدائق ولا التويلري وأنهار ولا نهر السين، وعندنا أيضًا تلال وجبال ولا جبال الألب، ومع ذلك لا نقف مكتوفي الأيدي، بل لدينا برنامج كامل لقهر البيئة، وقد قطعنا في هذا الطريق خطوات ما أبعدها وما أسعدها!

قالت البنت الخواجاية: خبرني، أيها الحمار المتمرس، عن هذه الخطوات البعيدة والسعيدة، فما أسعدني عندما أسمع أنكم بالرغم من حموريتكم تنشدون الأمثل والأكمل في الحياة!

قلت: عندنا يا خواجاية في بعض أجزاء من بلادنا العربية جزر كانت مهجورة ومطمورة، ودرجة الحرارة فيها أعلى من جهنم، ودرجة الرطوبة تصيب الكائنات الحية بالاختناق، ولكننا زودناها بالهواء المنعش، وزرعناها بالورد المزركش، وصبغناها بالطلاء المبرقش، وجعلناها مثل سفينة نوح فيها من كل زوجين اثنين، حمير تلاقي، أُسود تلاقي، نمور تلاقي، قرود تلاقي.

واستوردنا لها غزلان من لندن وباريس تسرح في الجزيرة وتمرح، غزلان بالبكيني، وغزلان زلط ملط، وغزلان سبحان الذي صوَّر والذي كوَّر والذي جعل الصدور بهذا البروز والبذوذ!

قالت البنت مندهشة ومنبهشة: غزلان من لندن وباريس تستوردون؟ نحن نستورد الغزلان من بلادكم.

قلت: لأنكم تستوردون غزلانًا للفرجة والمشاهدة، ولكننا نستورد غزلانًا ... العيون زرق، والشعر أصفر، والنهود كما الجنود واقفة ومستعدة، والرقبة كما العقبة، والأكتاف يا خفيَّ الألطاف، والعيون ولا الصحون، والرموش ولا ورق شجرة كرموش! غزلان لزوم المزاج والفرفشة، وهي في النهاية لكي يعود الشيخ إلى صباه.

قالت البنت وفمها مفشوخ على الآخر من شدة الانبهار: ما أكرمكم من قوم! تقهرون الطبيعة، وفي نفس الوقت تحاولون تحسين النسل! أليس كذلك؟

قلت: لا، الحكاية ليست كذلك، ولكننا فقط نحاول أن ننفتح على كل دول الأرض، ولكن الانفتاح يتم على طريقنا وبأسلوبنا وبالشكل الذي يعجبنا.

والحوار العربي الأوروبي شغال في هذه الجزر صباح مساء على وِدنه، وهو حوار لا ينتهي؛ لأنه حوار صامت بالرغم من أنه حوار يستهدف التجارة والبيض الأمارة، ولكنه وإن كان حوارًا صامتًا إلا أنه تتخلله شهقات وهمهمات.

قالت البنت الفرنساوية: فرفشة ومتعة وفهمنا، حوار عربي أوروبي بأسلوبكم؛ معقول، ولكن أين هي التجارة في هذا الأمر الغريب؟

قلت: يا سلام! بل هي في بلادنا أنشط تجارة وأربح تجارة، وإذا كانت لدينا تجارة كثيرة رابحة، فأربحها على الإطلاق هي تجارة الأجساد. والبنت التعبانة الدهبانة إذا حضرت من بلادكم عندنا وقضت شهرًا في جزيرة من الجزر إياها، عادت ومعها هدايا بعدة ألوف، وشيك بعدة أصفار، وسيارة آخر طراز؛ لزوم الفسحة والانتقال.

قالت البنت وقد شهقت وجزعت: مش معقول! لا شك أنك تبالغ، كل هذه الأموال من أجل شهر حب واحد!

قلت: وأحيانًا من أجل ساعة حب واحدة، وأحيانًا بدون مقابل على الإطلاق. وحدث ذات مرة يا خواجاية أن محل هارودز الشهير في لندن الذي اشتراه أخيرًا واحد مصري اسمه فايد، وتشاجر معه واحد آخر اسمه رونالد، وتبنَّت جريدة الوفد قضية فايد على أنها قضية المستقبل، واعتبرت شراء فايد لمحل هارودز علامةً من علامات التغيير وهدفًا من أهداف الديمقراطية! هذا المحل الذي اشتراه الفايد حدث فيه حادثة منذ سنوات لا يصدقها عقل أو عكل؛ على رأي الست شويكار.

ذهبت سيدة بريطانية شردوحة وسنكوحة تشتغل في محل اسمه البلاي بوي، واشترت بالطو من الفرو الفاخر ثمنه مائة ألف جنيه إسترليني، كل جنيه ينطح أخاه، وقالت لصاحب المحل وهي تتثنى وتتلوى: قيِّد الثمن على حساب الشيخ فلحان، وفي

آخر العام عندما حان الوقت لإرسال الفواتير للعملاء، اكتشف محل هارودز أن لديه عشرة مشايخ اسمهم فلحان، وفشل الكمبيوتر في معرفة من هو فلحان المقصود الذي ينبغي عليه أن يدفع مائة ألف جنيه إسترليني؛ ثمنًا لبالطو السيدة السنكوحة التي أخذت البالطو واختفت في زحام الناس؟

واهتدى المحل إلى حل يضمن له فلوسه؛ وهو أن يرسل فاتورة لكل فلحان، وبالطبع سيدفع الذي اشترى للسنكوحة وسيرفض الآخرون، وقد يشفعون رفضهم باحتجاج، ولكن النتيجة كانت مدهشة للغاية؛ فقد دفع العشر فلحانات الثمن على الفور، لم يرفض أحدهم ولم يحتج؛ فمن يدري! ربما هو الذي اشترى ولكنه نسي ذلك في مشاغل الحياة، ثم إن الفلوس وفيرة، والحمد لله، عند جميع آل فلحان، وخسارة مائة ألف جنيه إسترليني أفضل من السؤال والاحتجاج، ومن يدري! فقد يسبِّب السؤال بعض الإحراج، وقد يتسبب الإحراج في فضيحة لا يعلم مداها إلا الله!

قالت البنت الفرنساوية وهي تدق صدرها بقبضة يدها: إذن هناك تسعة من الفلحانات دفعوا مائة ألف جنيه إسترليني ثمنًا لشيءٍ لم يحصلوا عليه.

قلت: لا شيء يهم يا خواجاية على رأي إحسان عبد القدوس، فالفلوس وفيرة، والله جاب، الله خد؛ هي فلسفة أبناء العمومة والأشقاء.

قالت البنت الفرنساوية: إذن فهؤلاء الناس يتبرعون بالملايين لمراكز البحث ومعاهد العلم والجامعات؟

قلت: بالعكس، لا تبرع لمثل هذه الأشياء، فالدولة هي المسئولة وليس الناس، وكل حي مسئول عن مزاجه ومسئول عن نزواته، وفي هذا المجال فليتنافس المتنافسون.

أعرف حمارًا من أبناء العصر الحميري ذهب إلى لندن للعلاج، كان مريضًا بفعل الشيخوخة وانتهاء العمر الافتراضي، ولكنه بالرغم من ذلك وقع في حب الممرضة الإنجليزية القشطة فتزوجها على سنة الله ورسوله، مع أنه في الثمانين وهي في العشرين، ودفع لها نصف مليون جنيه إسترليني مقدم صداق، وبعد شهر عسل في فندق ريفي حجزه لنفسه طلَّقها، بعد أن دفع لها مليون جنيه مؤخر صداق، أي: إنه اشترى شهرًا من عمر البنت بمليون ونصف مليون جنيه إسترليني، هذا عدا الهدايا والهبات، ويقال: إن من بين الهدايا بيتًا ريفيًّا تحيطه مزرعة في اسكتلندا، وبيتًا صيفيًّا على شاطئ البحر في برايتون، وعِقدًا من الأحجار الكريمة الخام قيل إن ثمنه ثلاثة ملايين من الدولارات.

وأعرف حمارًا آخر يكتب على بطاقته ألقابه ووظائفه وصفاته؛ الأمير الطيار المهندس السفير العقيد المفكر المخترع المؤلف المثقف العالم المقاتل الشيخ، رئيس الاتحاد الأوليمبي

والترسانة أيضًا، والأمين العام للمجمع العلمي، ركن الدولة والدين، الشيخ فلان الفلاني أبو ريحة وسخة!

وأعرف حمارًا آخر كتب عنه الأديب علي سالم مقالًا على صفحات جريدة الأهالي الغرَّاء بعنوان: شيخ مشايخ المجلس الأعلى للكستور، وهو شيخ ريحته وسخة، وهو الآخر استهواه قماش الكستور فأنشأ له مجلسًا أعلى في لندن، وصار شيخه الأوحد وإمامه الأكبر، ودعا جميع الأتباع والأنصار إلى ارتداء الكستور والدخول في الحلقة الكستورية؛ تمهيدًا للقضاء على الاستعمار، وتحرير القدس من براثن الصهيونية، وتحرير إسبانيا من براثن الإسبان! والمدهش حقًّا أن أدباء كبارًا ألفوا كتبًا في عبقرية الشيخ الكستوري، وقارنوا بين وجهه ووجه النبي، وبين سماحته وسماحة الإمام جمال الدين الأفغاني؛ باعتبار أن كله عند الحمير صابون.

أفغاني أو كستوري لا فرق، ولا شيء يهم على رأي إحسان عبد القدوس، وقصص حميرنا الأثرياء لا تنتهي، وسردها يحتاج إلى مجلد ضخم يا خواجاية، قد تنتهي صفحاته قبل أن ينتهي السرد، ومع أننا سمعنا على ملايينهم التي أُهدرت على موائد القمار، وضاعت بين أفخاذ الراقصات، إلا أننا لم نسمع عن مليم واحد تبرعوا به لمستشفى أو جامعة أو لمريض مسكين من أبناء السبيل.

والأدهى أنه في المناطق الغنية من بلاد الحمير، يذهب المهندس أو الطبيب أو أستاذ الجامعة ليتقاضى ستمائة جنيه في الشهر وهو يكاد يطير فرحًا؛ باعتبار أن طاقة ليلة القدر قد انفتحت له ... مع أن هؤلاء الحمقى يعلمون علم اليقين أن أي بنت سنكوحة من السكسون أو من الجيرمان أو من الوندال؛ تتقاضى في ساعة واحدة مرتب ستة من هؤلاء في عشرة أعوام!

قالت البنت الفرنساوية وهي تزغدني في صدري وتشدني من أذني: تقول تتقاضى في ساعة واحدة مرتب ستة من هؤلاء في عشرة أعوام؟

قلت: هذا المبلغ يُدفع للسنكوحة ... فما بالك بالليدي والبارونة والكونتيسة وملكة الجمال؟

قالت: إذن وداعًا أيها الحمار الغشيم؛ أنا ذاهبة إلى بلادكم في التو واللحظة!

قلت: لا ورب الكعبة لا أتركك تذهبين ... لأن الدرس يا خواجاية لم ينته بعد، فتجلَّدي وصابري وثابري، فما زال في العمر بقية، وما زالت هناك عن العصر الحميري قصص وحواديت وحكاوي وروايات!

قالت البنت وهي تغالب النوم: الله يخيبك! جعلتني أكثر شوقًا لرؤية العصر الحميري في الواقع وعلى الطبيعة، أمنيتي الآن أن أعيش حياتي مع الحمير وأستحمر!

قلت: على مهلك يا خواجاية، فكل شيء وأي شيء ... بأوان!

١ / ٤ / ١٩٩٠م

النشوء ... والانحناء!

استيقظت البنت الغندورة وهي آخر عكننة وآخر كلضمة، سألتها: مالك؟ قالت: سودت عيشتي وعكننت مزاجي وجعلتني مرة أرثي لحالكم، ومرة أخرى أحسدكم على ما أنتم فيه! قلت: ترثين لحالنا؛ مفهوم، تحسديننا على ما نحن فيه؛ هذا هو الذي يغيظ حضرتنا، فأنا لا أرى أي شيء نُحسد عليه، إلا إذا كان حسدك من باب ... حسدوا البيه على طول شنبه! قالت: بالعكس، لقد صورت لي بلادكم على أنها صحراء حولها صحراء، وبيدٌ دونها بيد؛ على رأي حضرتكم، يتخللها جزر هي الجنة بعينها، وكالجنة ليس فيها جرائد تصدع الرأس، ولا إذاعات تقلق المزاج، ولا تليفزيونات تثير غضب الحليم.

قلت: بالعكس يا خواجاية؛ ففي بلادنا صحف بعدد شعر رأسك، ولدينا إذاعات شغالة طول النهار وطول الليل، وخارج منها مزازيك وأصوات عَمال على بطال.

وعندنا التليفزيونات مصابة بإسهال الحلقات، وبعض هذه الحلقات دخل التاريخ من أوسع باب، حلقات المرأة اللي أكلت دراع جوزها، ورجل بين امرأتين، ورجل واحد وثلاث رحلات، ولكن قمة هذه الحلقات كانت بعنوان: امرأة واحدة وثلاث رحلات، وحصلنا على الأوسكار مرة بحلقات خنجر في الظلام، ولدينا أفلام بعدد الحصى في الصحراء، وعندنا أبطال سينما مصابون بالسل، ولكنهم على الشاشة يضربون كل أبطال الملاكمة؛ من أول تايسون مرورًا بمحمد علي كلاي وانتهاء بجولويس، وأغلب أفلامنا تحمل عناوين جذابة تخطف الأبصار والألباب: تعاليلي يا بطة، دكتور الحقني ... الحقني يا خويا الحقني.

وفي بلادنا كل امرأة صوتها مسرسع؛ مطربة، وكل مخمور يتردد على مواخير شارع الهرم؛ سمِّيع ... ومن جدة إلى رأس الخيمة تقطعها الطائرة في ساعتين، وهي نفس المسافة من

لندن إلى روما، ولكن على امتداد هذه المساحة من بلادنا، لدينا عشر محطات تليفزيون ملونة و١٣ محطة إذاعة تغطي كل القارات، وست محطات للأقمار الصناعية.

شهقت البنت وانزعجت، وقالت: إذن عندكم برنامج للفضاء؟ قلت: عندنا فضاء ليس بعده فضاء، ولدينا فراغ من هنا وإلى يوم القيامة.

قالت: وعندكم مركز لإطلاق الصواريخ بالطبع!

قلت: صواريخنا على قفا من يشيل، ونطلق اسم الصواريخ على السجائر الملفوفة بالحشيش.

قالت: غريبة ... ما دامت عندكم هذه النهضة المباركة والبنطلونات الهيلانكة، فلماذا لا يقوم إعلامكم بتقديمها للعالم وتعريفها للكون؟

قلت: في الواقع إعلامنا لا يهتم كثيرًا بالخارج، ولكن اهتمامه الحقيقي بالداخل، والذي وضع الحجر الأساسي في نهضة إعلامنا هو فيلسوف الإعلام في هذا العصر الحميري، وهو دكتور وحاكم وقادر وخبير من خبراء الهلسفكيشن، وهو رجل معجزة بكل المقاييس لأنه خبير إعلام، مع أن شهادة الدكتوراه تبعه كانت من تفسير عبارة: لا تين ولا عنب زيك يا مشمش!

وهو في الأصل تلميذ للفيلسوف الإغريقي الشهير عمر الجيزاوي صاحب النظرية الفلسفية الشهيرة: اتفضل شاي لا أنا متشكر، كما أنه تلقَّى العلم على يد شاعر جاهلي مشهور صاحب المعلقة الخالدة «اسأل دموع عنية، اسأل مخدتي»، هذا الرجل المعجزة استطاع يومًا ما أن ينتج مسرحية كل خمس دقائق، وأن يصدر كتابًا كل ربع ساعة، وأن يخرج فيلمًا كل ليلة خميس! وهو في الحقيقة كان سر انتصار العصر الحميري في حرب الأيام الستة، والفضل في الانتصار كان لفلسفته العميقة التي تقول: إن الإعلام مجرد عوعوة ووعوعة وهلضمة وفتَّح عينك تاكل ملبن يا صاحب الحظ والنصيب!

وكان الدكتور إياه صاحب فكرة نشر الأخبار التي تركز على ضيوف بلادنا الكبار، وتسلط الكاميرا على الطائرة وهي في الجو، ثم الطائرة وهي في الأرض، ثم خروج الضيف وصحبه الكرام، ثم مشية الإوزة على البساط الأحمر، ثم استقبال الضيف بالأحضان والقبلات، ثم تقديم الزهور والورود والريحان، ثم مصافحة جميع المستقبلين من أول رئيس الوزراء إلى شيال الشنط في المطار، ثم تطارد الضيف في سيارته وأمامه الموتسيكلات تصرخ كما ذئب مجروح في ظلام الليل، ثم دخول الضيف إلى قصر الضيافة، وتظل تدور خلفه وهو يأكل ويشرب وهو يدخن، ولا تفارقه إلا عندما يرتدي جلبابه لينام!

ضربت البنت على صدرها بشدة وقالت: إذن لا توجد أخبار في نشرة الأخبار!

قلت: بل هناك الكثير من الأخبار.

تصريحات للوزير ومقابلات البيه المأمور مع البيه الغفير، ثم درجة حرارة الجو في رأس الخيمة وفي الدوحة وفي كفر الدوار وفي طبرق وفي الجزائر وفي تطوان.

قالت البنت: وأخبار العالم؟ قلت: ما لنا نحن والعالم! وما الذي يهمنا فيه؟ لقد اكتفينا بما لدينا، وما لدينا هو أهم الحوادث والأخبار.

قالت: إن رجلًا مثل هذا هو فلتة من فلتات العصر، لو كان في بلاد غير بلادكم لكرَّموه ومنحوه الهدايا والجوائز والإكراميات.

قلت: الحمد لله لأننا فعلنا نفس الشيء، وهو الآن يتربع على قمة المجالس الكونية المتهندسة.

قالت: إذن هو خبير في الهندسة!

قلت: بالطبع ... والدليل على ذلك أنه يعتقد أن أبا العلاء المعري هو من كتَّاب الأدب المكشوف، ويؤمن بأن الجزائر هي مكان لإنتاج الفجل، والسبب أن باعة الفجل ... في بعض أجزاء من بلادنا ينادون عليه: «فجل الجزائر يا ورور».

قالت البنت، وقد هاجت وساحت: يا سلام عليك! ما أخبثك يا حماري الحمار، تنقلني إلى عوالم غريبة ودنيا عجيبة وتجعلني أصعد وأهبط في غمضة عين! ولكن خبرني هل الشاعر الجاهلي إياه ترك لكم تراثًا تعتزون به؟

قلت: بالطبع ... لقد ترك لنا ديوانًا واحدًا ولكن بثلاثة أسماء ... ففي عهد الملك أصدر ديوانه بعنوان: الملك الصالح، فلما ذهب الملك وجاءت الثورة أعاد الشاعر طبع ديوانه، ولكن تحت عنوان: الثورة المباركة، فلما خفَتَ صوت الثورة وأفل نجمها أعاد الشاعر طبع ديوانه للمرة الثالثة، وفي هذه المرة كان بعنوان: الصحيح في التصحيح.

قالت البنت مندهشة: ولكنها عبقرية فذة أن يصدر الشاعر ديوانًا واحدًا في ثلاثة عهود مختلفة.

قلت: في الواقع العهود مختلفة ولكن الموضوع واحد، فالشاعر مدَّاح ... مدح الملك والثورة والتصحيح بقصيدةٍ واحدة، وكان بيت القصيد فيها قوله:

وخير الحق أنك من هواء وكل العاملين لكم سواء
ولو كانت ببطن الأرض دُور لكانوا في الهوى أو في الهواء!

إن الشاعر بيَّاع، وقد باع بضاعته لكل الزبائن بعد أن أوهم كل زبون أن يبيعها له وحده، وهو هنا يسير على درب مواطن في بلادنا، ولا أذكر اسمه، يمتلك دكانًا لبيع

الكباب في حي عابدين، كان اسم الدكان حاتي الملك، فلما ذهب الملك سماه حاتي الثورة، فلما ذهبت الثورة أطلق على الدكان اسم حاتي الانفتاح.

لقد تغيرت الأسماء لكنه يبيع نفس الصنف، ومع ذلك لم يكن الشاعر وحده في الميدان، بل هناك من هو أدهى وأمر.

قالت: هات ما عندك أيها الحمار قبل أن يطق لي عرق في نفوخي؛ فقد دوختني وراءك في مزايا العصر الحميري حتى كدت أطلب من الله أن يقلبني حمارة أهنأ بعيش الحمير.

قلت: بعض رجال الاقتصاد في بلادنا تولوا وضع أسس الاشتراكية، وأشرفوا على التأميم، وطبقوا الإصلاح الزراعي، وهم أنفسهم الذين وضعوا أسس الانفتاح وسنُّوا قوانينه.

قالت: عباقرة وأصحاب علم يضعون علمهم تحت أمر الشرعية وفي خدمتها.

قلت: لو كان الأمر كذلك لما جاءت سيرتهم في هذا المجال، ولكنهم أيامَ الاشتراكية كانوا أكثر حماسًا من الخواجة ماركس، وأكثر بطشًا من ستالين، وفي أيام الانفتاح أصبحوا أكثر انفتاحًا من ماركوس حاكم الفلبين، وأكثر عداءً للاشتراكية من شاه إيران، ولدينا مهندسون اشتركوا في بناء السد العالي وأشادوا بمناقبه وعدَّدوا منافعه، وكانوا هم أول من اقترحوا هدمه بعد ذلك، ولدينا من اغتنى أيام الاشتراكية ولعنوا سنسفيل جدودها عندما انقلب الميزان ومالت الريح.

قالت: وما العيب في ذلك؟ إن بعض الناس تؤمن بشيءٍ ثم تنقلب عليه عندما يكتشفون خطأهم، والرجوع إلى الحق فضيلة.

قلت: آه يا خواجاية! لم يكن هذا الموقف منهم رجوعًا إلى الحق ولكن رجوعًا عن الحق.

قالت: كيف؟ وما هو دليلك على ذلك؟

قلت: يا خواجاية، في بلادنا البعض منا يؤمن بنظرية: إن جاء الطوفان حُط ابنك تحت رجلك، ويؤمنون أيضًا بقول الشاعر:

مِلْ مع الريح إذا ما لت وإلا فاحتمل

وما دام الاحتمال غير متوافر فالميل أسهل وأكسب، وهم مثل شجرة اللبلاب تميل مع الريح في كل اتجاه.

قالت: وشجرة اللبلاب تعيش رغم ضعفها، ولو أنها قاومت الريح لانكسرت، وهؤلاء الناس الذين يميلون مع الريح فلاسفة وحكماء.

قلت: الحقيقة يا خواجاية لا حكمة هناك ولا فلسفة، ولكنها سياسة: مشِّي حالك، وفتَّح عينك تاكل ملبن، وإن كان لك حاجة عند الكلب قل له: يا سيدي!

قالت البنت الفرنساوية: هذه حكمة عميقة لم أسمع قط مثلها، فإذا كان لك عند الكلب حاجة فكيف الحصول عليها إذا لم تقل له: يا سيدي؟! هل أنتم بوذيون؟

قلت: بل نحن في الحقيقة حوذيون.

قالت: لم أفهم مرادك.

قلت لها: الحوذي، أيتها الست الخواجاية، هو عربجي الحنطور، وهو يؤجر حنطوره لمن يشاء، وبشرط أن يفعل ما يشاء؛ إذا كان سكران يعربد كما يشاء، إذا كان صالحًا يتمتم بسم الله كما يشاء، والعربجي منبسط ومنشكع في الحالتين وآخر مزاج، ليس له أن يرفض أو يحتج؛ فهو يؤجر حنطوره فقط، وللمستأجر حق استغلاله كما يشاء، وما على العربجي إلا هز رأسه؛ علامة الموافقة والانسجام.

قالت: ولكنك لم تحدثني بما فيه الكفاية عن إعلامكم، لقد هربت من الموضوع كما تهرب العرسة من الثعبان.

قلت: لأن الموضوع شائك وخطير وكفيل بإدخال الهمِّ على القلوب والألباب.

قالت: بالعكس أريد أن أسمع.

قلت: كل عمدة على قطعة أرض من بلادنا لديه إذاعة لا شغل لها إلا الإشادة بحكمته والإفاضة بوصف عبقريته، وأنه هو وحده صمام الأمن والأمان، وهو وحده الولي صاحب الكرامات والمعجزات، إذا نطق بحديث أذاعته على مدار اليوم عشر مرات، ليس الحديث وحده، ولكن الحديث وصدى الحديث وتعليقات الدوائر السياسية على الحديث، واهتمام كل الدوائر بالحديث وما وراء الحديث.

قالت البنت الفرنساوية: يا له من عمل رائع! الإذاعة تشغل نفسها بالحديث، وما وراء الحديث، والصدى الذي تركه الحديث، والأثر الذي أحدثه الحديث، ما الخطر من وراء ذلك؟

قلت: بعض مشايخ بلادنا ينسون أنفسهم أحيانًا فيتحدثون فيما لا يعرفون؛ كنت في إحدى نواحي بلادنا ذات يوم، وإذا بي أسمع حديث شيخها في الإذاعة أكثر من عشر مرات في اليوم، وكان الحديث عن الحرب والسلام وتشابك المصالح واختلاف المقاصد والغايات، ولم يقل الشيخ شيئًا حول الموضوع، وكل ما نطق به عشر كلمات، كررها ألف مرة،

وكان هذا هو الحديث كل الذي أحدث أثرًا في العالم — على حد قول الإذاعة — ولا الأثر الذي تركته قنبلة هيروشيما على سير الحرب بين أمريكا واليابان، عشر كلمات فقط نطق بها الشيخ: «الله سبحانه وتعالى هو يخلق الإنسان، والإنسان ما بيده شيء خالص.» إذا سأله المراسلون عن العلاقة بين الشرق والغرب قال العمدة: «الله سبحانه وتعالى هو يخلق الإنسان، والإنسان ما بيده شيء خالص.» يسألونه عن مصير البروستر ايكا التي يرفع شعارها جورباتشوف، يقول: «الله سبحانه وتعالى يخلق الإنسان، والإنسان ما بيده شيء خالص.» يسألونه عن غزو أمريكا لبنما فيرد: «الله سبحانه وتعالى يخلق الإنسان، والإنسان ما بيده شيء خالص.» يسألونه عن الانتفاضة في أرض فلسطين والنهاية التي يتوقعها للمشكلة، فيقول: «الله سبحانه وتعالى يخلق الإنسان، والإنسان ما بيده شيء خالص.»

قالت البنت الفرنساوية وقد فتحت فاها دهشًا وإعجابًا: إن حديثًا مثل هذا ينبغي ترديده في اليوم أكثر من مائة مرة، ويبقى الاهتمام بأثره في أنحاء العالمين، ورصد ردود الفعل من حوله، فحديث مثل هذا هو غاية في الحكمة وآية في الكمال.

قلت: كيف يا خواجاية؟ اشرحي لي.

قالت: إن الرجل صاحب الحديث لا يريد أن يفصح عن رأيه بصراحة، ولكنه يلجأ إلى الإشارة دون الإثارة، ويكتفي بالتلميح دون التصريح، وترك كل شيء لإرادة الله سبحانه وتعالى؛ يسألونه عن الانتفاضة فيجيب: الله سبحانه وتعالى يخلق الإنسان، والإنسان ما بيده شيء خالص، ومعناها ببساطة: أن الله هو الذي خلق الانتفاضة، وما دامت الانتفاضة من خلق الله، فلا بد هي مستمرة بإذنه ومنتصرة بمشيئته.

قلت: لا، لقد بدت عليك أعراض العصر الحميري يا خواجاية، وتحتاجين الآن إلى إجازة لتخرجي إلى الشارع الأوروبي لتعيشي فيه فترةً؛ لترجعي إلى أصلك وتنتظمي في صفك، فأنا أخشى الآن أن تتحولي إلى أتان من فصيلتنا، وقد تحتاجين فيما بعد إلى عملية جراحية؛ لكي تعودي إلى صنف البني آدمين.

قالت: أهكذا أنت حانق وحاقد! والحنَق يذهب بالعقل، الحُمق يطمِس على القلب؛ ولذلك فأنت لا ترى شيئًا جميلًا في بلاد الحمير، مع أنني أكثر شوقًا الآن للسفر إليها، والعيش في ربوعها، والرحرحة على رمال صحراواتها، والبلبطة في مياه البِرَك والخلجان.

قلت: خير وبركة! لقد كسب العصر الحميري حمارة جديدة، وسيكون يوم دخولك العصر الحميري عيدًا قوميًّا على مستوى الأمة؛ لأن دخولك يثبت النظرية التي يقوم عليها مجتمعنا؛ وهي نظرية النشوء والارتخاء.

قالت: لم أفهم.

قلت للبنت الخواجاية: هل تعرفين دارون؟

قالت: طبعًا؛ إنه أعظم فلاسفة العصر.

قلت: وتسمعين عن نظريته؟

قالت: طبعًا؛ نظرية النشوء والارتقاء.

قلت: آه! هنا مربط الفرس.

قالت: كيف؟

قلت للست الخواجاية: دارون هذا مفلس ثقافة ومعرفة، وهو بالنسبة لكم فيلسوف الفلاسفة، ولعلك يا ست يا خواجاية تلاحظين أن فلسفة وفلاسفة تتكون منها نفس الحروف التي تتكون منها كلمات مفلس وإفلاس، وهو بالقطع كتب نظريته قبل أن يرانا، ولو أنه رآنا ما استطاع أن يعرف حقيقتنا. ونظرية أخينا دارون خاطئة من أساسها؛ لأنه أقامها على نظرية النشوء والارتقاء باعتبار أن كل نوعٍ ينشأ في البداية ثم يرتقي؛ هذه سُنة الكون عند عمنا دارون، لكن سنة الكون عندنا تختلف ... فمثلًا نحن في البداية كنا بني آدمين من أحسن طراز، وأجدادنا ضربوا أعظم إمبراطوريتين في التاريخ؛ الفرس والروم، واستطاعوا أن يحكموا العالم المسكون وقتئذٍ، وامتدت إمبراطوريتهم من فرنسا إلى الصين، وأشاعوا في أرجائها العدل والرحمة، أضاءوا في جنباتها مشاعل العزة والنور، ومن مدارسهم تعلَّم الغرب، ومن معاهدهم خرجت الموسيقى والفلسفة وعلوم الهندسة والطب، وأجدادنا هم الذين اخترعوا أدب الرحلات، وهم الذين وضعوا علم الجغرافيا، وهم أول من وضع خريطة للعالم المعروف في زمنهم، وعساكرهم هم الذين حموا العالم من جنس التتار، وكان لنا خليفة يحكم نصف المعمورة، ويشتغل بيديه، ويحمل عمله على كتفيه ويدور به في الأسواق، وكان يأكل من ربحه الصغير؛ مع أنه كان يملك أغلب خزائن الأرض.

وكانت بدايتنا، أيتها الست الخواجاية، نبيًّا مرسلًا من السماء ما أعظمه! وما أكرمه! حذرنا ذات يوم بكلمات مضيئة: إنما هلكت الأمم من قبلكم؛ لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الفقير أقاموا عليه الحد.

وكان لدينا علماء امتد سيف الحاكم لرقابهم، لكنهم رفضوا أن يتفوهوا بكلام غير الحق، وكان لدينا بطل مشهور في بلادكم اسمه صلاح الدين، قاتلكم بالسيف وانتصر عليكم، وسر انتصاره أنه كان يضرب بسيف العدل، وبينما كنتم تعلِّقون الصليب على راياتكم، كان هو يحمل الله في أعماقه.

قالت البنت الفرنساوية وقد مسَّتها نشوة كأنها أصابتها عشوة: هل هكذا كان حالكم أيام زمان؟

قلت: وأكثر من هذا يا خواجاية! هل أذكر لك كوكبة الفرسان العظام؛ من أول سعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وموسى بن نصير وطارق بن زياد وصلاح الدين والظاهر بيبرس وعلي بك الكبير ومحمد بك أبو الدهب ومحمد علي وجمال عبد الناصر؟

قالت: هل قلت محمد بك أبو الدهب؟

قلت: نعم.

قالت: هل كان صاحب دكان في الصاغة؟

قلت: بل كان قائدًا عظيمًا؛ قلبه من ذهب، وسيفه من ذهب، ما دخل معركةً إلا وانتصر، ما دخل معركةً ضد جيش إلا وفرمه في المفرمة.

قالت: وما علاقتكم بكل هؤلاء الرجال العظام؟

قلت: كانوا بعض إنتاجنا ونماذج من بعض رجالنا، ولكننا للأسف الشديد كلما تطورنا تأخرنا؛ ولذلك نحن الذين أثبتنا خطأ نظرية دارون النشوء والارتقاء ... لأن ما ينطبق علينا هو نظرية النشوء والارتخاء، أو النشوء والانحناء، أو النشوة والانفتاء ... هل تعرفين الانفتاء؟

قالت البنت المتعالمة: لا، لم أسمع به بعد.

قلت: إذن هل تسمعين عن الانفتاح؟

قالت: نعم، وأعرف أن في بعض أجزاء بلادكم حركة انفتاح على وِدْنُه.

قلت: عفارم عليكِ يا خواجاية، الانفتاء هو الانفتاح، لكن بلغة الست والدتنا عليها رحمة الله، وأنا شخصيًّا كنت غاوي كورة وأنا طفل، وكنت ألعب بالكورة أحيانًا وبالحجارة في أغلب الأحيان، وكان حذائي ينفتح ويتمزق، وكانت أمي تصرخ في وجهي: كده! أهي الجزمة انفتئت؛ أي: انفتحت! والحمد لله هكذا نحن انفتأنا؛ أي: انفتحنا، وربنا هب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب.

قالت البنت وقد داخت وساخت: ولكن يا مضروب هذه نظرية جديدة، تستطيع أن تنال عنها الدكتوراه من فرنسا.

قلت: لا داعي للدكترة في هذا العصر؛ وخصوصًا ولدينا جامعات تمنح الدكتوراه للسادة الوزراء المحافظين، ولدينا دكاترة ليس لهم حصر.

قالت: إذن أنت يائس!

قلت: بل أنا بائس.

قالت: وما العمل؟ قلت: العمل!

سهل وبسيط.

قالت: كيف؟

قلت: على مهلِك يا خواجاية، فما زال حبل الكلام ممتدًّا، وكما أنه أيضًا طويل، فدعينا نأخذ قسطًا من الراحة اليوم ثم نبدأ حديثنا في الغد.

قالت: إذا جاء علينا الغد فأنا أشعر الآن أنني أكاد أحلِّق في الفضاء، وأطير وأظل أطير حتى أحط في بلاد الحمير.

قلت: يا مرحبًا بك في بلاد الحمير.

١ / ٥ / ١٩٩٠م

عن الخطط والأهداف

قالت البنت الفرنساوية بعد أن أفطرت وتعطرت وتمخطرت من شدة الشبع والانشكاح: لقد ذكرت لي بالأمس أن مهندس الإعلام في العصر الحميري كان دكتورًا، هل هو دكتور طب يكشف ويعالج؟ أم دكتور في العلم والبحوث والمخترعات؟

قلت: في الحقيقة يا خواجاية هو دكتور فقط، لا يفهم في العلم ولا في الطب ولا في أي شيء.

قالت: إذن كيف صار دكتورًا؟

قلت: يا ست يا خواجاية، في بعض أجزاء من بلاد الحمير، كل من أخفى عينه وراء نظارة سوداء، وحمل في يده حقيبة سامسونايت؛ ينادونه بلقب دكتور، وهذا النوع من الدكاترة هبر أكثر من خُمس دخل البترول في صفقات مريبة وعجيبة.

قالت البنت الفرنساوية: لا بد أنهم كانوا أصحاب صناعة أو أصحاب تجارة.

قلت: بل كانوا أصحاب صياعة، ولم يكن لهم هدف إلا النصب والاحتيال.

قالت: وأعطوهم الفلوس من أجل النظارة السوداء والحقيبة السامسونايت؟

قلت: بالطبع لا، ولكن النظارة والشنطة السامسونايت ولقب الدكتور؛ كانت هي عدة النصب التي فتحت لهم الأبواب، نصابون، كانت عمولتهم ضعف أي عمولة عُرضت من قبل، كانوا يدفعون خمسين في المائة وأحيانًا ستين في المائة، وكان بعضهم على استعداد لأن يدفع ثمانين في المائة من قيمة الصفقة. فماذا يضر لو وضعت في جيبك ٢ مليون دولار وأعطيت الطرف الآخر ٨ ملايين؛ ما دمت لن تورد شيئًا أو تلتزم بشيء؟!

أنا شخصيًّا كنت في زيارة لبلد من بلاد الحمير، ورأيت بعيني صفقةً باع فيها بعض الدكاترة إياهم خمسة آلاف بادج، كانت مخصصة لمهرجان الهيبز، الذي عُقد في لندن

في عام ١٩٦٥م، وباعوا البادجات ليعلقها أعضاء الوفود الذين اجتمعوا في عام ١٩٧٥م لحضور مؤتمر ديني!

لقد بيعت كل قطعة من الخمسة آلاف بادج بعشرة جنيهات إسترلينية، مع أن الدكاترة النصابين إياهم أخذوا من صاحب البادجات الهيبية عشرين جنيهًا للتلخص منها، ولم يفرق السيد الحمار الذي دفع الفلوس بين المؤتمر الهيبي والمؤتمر الديني.

أنا شخصيًّا توليت إدارة التحرير في جريدة تصدر في بلد حميري آخر، واكتشفت وأنا أتسلم العمل من مدير التحرير السابق أنه لا يعرف القراءة والكتابة، مع أن بطاقته كانت تحوي لقب دكتور، ولما سألته دكتور في إيه؟ أجابني بأنه دكتور في لندن!

قالت: إذن ليس لديكم جامعات تمنح درجة الدكتوراه!

قلت: لدينا دكاترة بعدد شعر الرأس، ولدينا دكتور في السيرة الهلالية، ولكن لأننا نحب التخصص، لدينا مائة دكتور في أبو زيد الهلالي، ومائة دكتور في دياب بن غانم، ومائة دكتور في الزناتي خليفة، ومائة دكتور في السفيرة عزيزة، وحتى تكتمل الصورة وتتم المعجزة أصبح لدينا مائة دكتور في الريس متقال؛ الذي ينشد السيرة الهلالية.

قالت: إنه تخصُّص التخصص، وهي مرتبة في العلم لم يصل إليها أحد من قبل؛ تتخصصون في السيرة أولًا، ثم تتخصصون في كل بطل من أبطالها، ثم تتخصصون بعد ذلك في المطرب الذي ينشدها! لو كنت منكم لطرت من شدة السعادة.

قلت: وأنا أيضًا طائر من شدة السعادة يا خواجاية؛ وأنا أحكي لك عن حالنا كلون من ألوان الفخر.

قالت: ولكن، هل كان لديكم مهندس واحد للإعلام؟

قالت: بل إنهم لكثير، أحدهم كان صحفيًّا فاشلًا، ثم دفعه نفاقه فصار «مستحفظانًا» على أمور الإعلام، وهو ينتمي إلى أقلية صغيرة تعيش في الوطن الحميري، ومع ذلك، نصب من نفسه داعية من دُعاة القومية، وبالرغم من كونه سفاحًا، فقد جعل من نفسه داعية من دُعاة الحرية، ولأنه أميٌّ لا يعرف القراءة والكتابة، فقد جعل من نفسه سيفًا على رقاب الموهوبين.

وفي زمن إشرافه على سنجقية الإعلام، أصدر قرارًا بمنع نشر خبر موت عبد الحليم حافظ؛ أشهر مطرب في العصر الحميري، ليه؟ لأنه في رأي الحمار الإعلامي مطرب رجعي انتهازي انكشاري انشطاري عديم المقاتلة والنضال! وكانت النتيجة أنه جعل من جهاز التليفزيون الذي اخترعوه في بلادكم للمتعة حوَّله إياه إلى جهاز للتعذيب.

قالت البنت الفرنساوية: هل قدمتموه للمحاكمة وعرضتموه للمساءلة؟

قلت: بالعكس، بل صار عضوًا في مجلس الثورة.

قالت: وهل قامت في بلادكم ثورة؟

قلت: الحمد لله في بلادنا الثورة قايمة والكفاح دوَّار.

قالت: كيف؟ وهل معقول أن الثورة تقوم فلا تقعد، وتدور فلا تتوقف؟ لقد قامت لدينا ثورة هي الثورة الفرنسية كما تعلم، وبعد أن أكلت بنيها استقر كل شيء، واقتصر الأمر على الاحتفال بقيامها مرةً كل عام.

قلت: هذا عندكم، ولكن عندنا كل يوم ثورة شكل، وكل يوم ثوار ألوان، وكل ثورة لها رئيس يرتدي زي المارشال، ولأن ثوراتنا يقوم بها في العادة مارشالات من منازلهم؛ لذلك يصبح شكلهم في بعض الأحيان الخالق الناطق شكل المارشال، على مجذوب حي الحسين، وتظل الثورة قايمة في بلادنا والكفاح دوَّار ما دام الثوار في الحكم، وأحيانًا يمتد عمر الثورة في بعض أجزاء من بلادنا إلى عشرة أعوام، أو عشرين عامًا، ولدينا ثورتان الآن في بلاد الحمير عمرهما ٢٢ سنة؛ ثورة في الشرق وثورة في الغرب، وتستمعين إلى الإذاعة هنا وهناك؛ فتظنين أن الثورة قامت بالأمس؛ فالمارشات العسكرية على وِدنه، والأغاني الحماسية على ودنه، وقرارات الثورة بعزل فلان وقتل فلان؛ على قفا من يشيل.

قالت: وما المانع من قيام الثورة إذا كان هدفها التنقية والتطهير؟

قلت: ولكن ثوراتنا ليس هدفها التطهير أو التغيير؛ إن هدفها الحقيقي هو بقاء الحال على ما هو عليه، بل أحيانًا على أسوأ مما كان عليه؛ بدليل أن المواطن تحت ظل بعض هذه الثورات انكمشت قدرته المالية عن ذي قبل، وانحط مستواه المعيشي عن ذي قبل، وفقد كل شيء … أمنه ورزقه وكرامته، ويعيش المواطن في العصر الحميري أغلب حياته في ظل الوهم وفي ظل الخديعة، ويعيش في انتظار الوهم الذي سيتحقق بفضل قيادة وتوجيهات وتعليمات وإرشادات وتخطيطات الزعيم الملهم مارشال البر والبحر والجو، والوريث الوحيد والأكيد لخالد بن الوليد والقعقاع والظاهر بيبرس وعلي بك الكبير وعلي بيه لوز!

قالت البنت الفرنساوية: وما المانع من ربط الأحزمة على البطون وتقييد حرية المواطن إذا كان الهدف في النهاية هو التحرير؟ إذ لا بد، بالرغم من أنكم حمير، أن يكون لكم أعداء، ولا بد من إظهار العين الحمراء للأعداء؛ بتجهيز الجيوش وحشد الطاقات وتوحيد الجهود، ولا بد من الشدة على المواطن؛ لكي يتعود على الشدة وقت الحرب؛

فالحرب ليست نزهة وليست حفلة. وعلى هذا الأساس فمارشالاتكم لديهم حق في أخذ الشعب بالعنف والشدة؛ حتى يتعود المواطن على جو الحرب.

قلت: عندك حق يا خواجاية؛ فأنتِ تتكلمين عن عالَم طبيعي وأنا أتكلم عن عالم حميري، فالمارشالات تبعنا لا يحاربون أعداءنا إلا في الإذاعة، ويتصدون للإمبريالية في الصحف والجرائد السيارة، وهم في أعماق أعماقهم يتمنون أن يبقى العدو لا يبرح مكانه؛ لأن وجود العدو داخل أراضينا يجعل منه شماعةً يعلق عليها المارشالات كل أخطائهم وخطاياهم. وبسبب العدو الذي لم يجرؤ مارشال واحد منهم على التهويب نحو حدوده، تَضيق السجون بالأحرار، وتلتف حبال المشانق حول رقاب المعارضين، وبسببه أيضًا تختفي الديمقراطية ويُسحق المواطن المسكين تحت الأقدام.

قالت البنت: عجيبة! يرتدون زي المارشال ولا يحاربون؟!

قلت: بالعكس، بل هم يحاربون في كل يوم وفي كل اتجاه، ولكن حروبهم تدور داخل حدودهم وبين بعضهم البعض؛ عندنا بلد من بلاد العصر الحميري تدور فيها حرب أهلية الآن، وهم يحاربون من منزل إلى منزل ومن شارع إلى شارع، وبالرغم من كل شيء، فقد أثبت المارشالات تبعنا أنهم أشجع من عنترة وأكثر إقدامًا من ابن الوليد، وقد أثنت الدوائر العسكرية الأجنبية على أداء جميع المتحاربين الحمير، وأكدت أن هذا الأداء الرائع هو نتيجة تدريب شاق وجاد ورفيع؛ مما جعل جميع المتحاربين الحمير قادرين على التصويب من بعيد، والدليل هو سقوط قذائف الحمير على بيوت الحمير؛ كما أن عمليات الكر والفر جعلت الانتصار مرتين؛ مرة انتصر بعض الحمير على بعض الحمير، وفي المرة الثانية انتصر فيها بعض الحمير على بعض الحمير؛ فالحمير على الجانبين، والقتلى حمير، والجرحى حمير، والأسرى حمير، والحمير انهزموا مرتين وانتصروا مرتين، وهي مسألة لم تحدث لأي جنس في التاريخ قبل ذلك.

قالت البنت الفرنساوية: يا سلام ... معنى ذلك أنكم تقومون بمناورات ليس بالذخيرة الحية فقط، ولكن بالنفوس الحية أيضًا، وهي مرتبة عسكرية لم يصل إليها أحد، حتى ولا الجيش البروسي الشهير، وإن مثل هذه المناورات الحية كفيلة بالانتصار على الأعداء عندما يحين الوقت المناسب.

قلت: عيبنا يا خواجاية أن الوقت المناسب لم يحِن عندنا قط؛ فالثورة عندنا دايرة، والحرب الأهلية شغالة، والثوار في الحكم لا يخلعهم إلا ثوار آخرون، فتقوم الثورة من تاني، وتنشب الحرب الأهلية من جديد.

قالت: يبدو أن مصيبتكم كبيرة، وقطتكم نميرة واسمها سميرة، لقد وجعت قلبي أيها المضروب، وكان حديثنا عن الدكاترة في الإعلام، وانحرفت بنا في الحديث إلى الثورة والثوار، أليس لديكم دكاترة في مجال الإعلام؟

قلت: بالعكس، الدكاترة عندنا أكثر من الهم على القلب، وثلاثة أرباع وزراء العصر الحميري من صنف الدكاترة، ورغم الفشل المتوالي والفقر المتعالي، إلا أننا متمسكون بتوزير السادة الدكاترة، ولكن أغرب هؤلاء الدكاترة واحد يتولى مسئولية عموم الجاز وهو دكتور بفلوسه، كما أنه شاعر يقول الشعر في مواجهة الخطوب والأزمات، إذا ارتفع سعر البترول، رقع القصيدة من نوع:

حبورًا أو عبورًا لا تبالي فإن الهبر من شِيَم الرجال

أما إذا انخفض سعر البترول، رقع قصيدة من نوع:

صبورًا لا تخف غدر الليالي فبعد النقص لا بد العلالي

والأكادة أن أغلب نُقاد العالم الحميري وجدوا في القصيدة استنباطات وإسقاطات في الباطن المستغلق، وبعضهم أرجع القصيدة إلى مدرسة الاستبطان الاستغلاقي، وبعض صحف العالم الحميري كتبت القصيدة بماء الذهب ونشرتها على عشرة أعمدة، والبعض رشحها لنيل جائزة موبِل.

قالت البنت الفرنساوية: ولماذا موبل بالذات؟ لماذا ليس «شل» أو «سوكوني فاكوم»؟

قلت: لأن موبل يشتري البترول من صاحبنا، وبطريقة: شيلني واشيلك؛ يعطيها البترول أرخص شوية، تعطيه الجايزة ومكافأة أكبر شوية، فليس بين الشاعر البترولي والشركة البترولية حساب.

قالت البنت الفرنساوية: ما أعظمه من قائد طابية، هذا الرجل العظيم الذي هو أغا النفط في بلاده، والنفط هو المادة الوحيدة التي أثبتت وجودها في هذا العصر، كما أنه مثل الطائرة من علامات القرن العشرين، هذا الرجل تبعكم يدير آلة التاريخ، ومع ذلك يترك واقعنا الأليم والمرير، ويحلِّق على جناح الخيال إلى سموات الفن والشعر الجميل، لا بد أن رجلكم هذا مفلس وشريد وهيمان.

قلت لها: صحيح، هو مفلس، ولكن ليس بالمعنى الذي في رأسك، فهو إذا سحب رصيده من أي بنك، يصبح البنك مهددًا بالإفلاس.

قالت: إذن هو غني.

قلت: بل من أغنياء العصر والأوان.

قالت: ولماذا يَقرِض الشعر؟

قلت: أي شعر؟ إن هذا الذي ينطق به ليس من فصيلة الشعر، ولكنه كلام حلمنتيشي لإضحاك الصغار.

قالت: طيب، وما دام هو ثريًّا كما تقول وبنكيرًا كما تدَّعي، لماذا سعى للحصول على الدكتوراه؟

قلت: لأن الدكتوراه في بلاد الحمير لها استخدامات كثيرة؛ فهي تُستخدم أحيانًا للنصب، وأحيانًا في الغش، وأحيانًا للزينة، وهي مع صاحبنا «قومندان» النفط للعصر الحميري مجرد حلية تسبق اسمه الكريم.

قالت: إذن كل أصحاب الدكتورهات عندكم من هذا الصنف، أليس عندكم دكتور واحد بحق وحقيق؟

قلت: بل هم أيضًا أكثر من الهم على القلب، ولكن أغلبهم استطاع أن يدبر أمره؛ فهرب من العصر الحميري وذهب إلى عصور أخرى واستقر هناك؛ بعضهم يشترك في برنامج الفضاء، وبعضهم يشترك في قواعد الصواريخ وفي برنامج حرب الكواكب، والبقية التي بقيت داخل العصر الحميري، ظلت تقف محلك سِر؛ لا تتقدم ولا تتأخر، معايشهم يدبرونها بالعافية، وملابسهم يا دوب تكفيهم حر الصيف وزمهرير الشتاء، وسياراتهم من ماركة اللي يحب النبي يزق.

قالت: ولماذا لم يهربوا من عصركم الحميري؟

قلت لها: سؤال وجيه فعلًا، ولكني لا أعرف له جوابًا، ربما لأنهم كسالى ... ربما لأن لديهم بعض الأمل في تغيير الأحوال، والانتقال بالعصر الحميري إلى العصر الجاموسي، فيصبح لهم فائدة على كل حال، وربما بعض الغلوشات والهلوسات التي تصيب صنف الحمير؛ مثل الارتباط بالأرض، والالتصاق بالطين، والعودة إلى مسقط الرأس، والبقاء في أرض الجذور.

قالت البنت الفرنساوية: أنا في عجبٍ من أمركم؛ أحيانًا ترتكبون الهفوات وأحيانًا تصنعون المعجزات. أحيانًا تحلقون في الفضاء وأحيانًا تزحفون على الأرض، والغريبة أنني لم أسمع منك أسبابًا لأي من الحالتين. يبدو أنكم تعيشون حياتكم بالقدرة، وتمضون في طريقكم كلكشنكان، هل أنتم مشدودون بأسلاك ومربوطون بأزرار؟ أليس لديكم

تخطيط؟ ألا تنفذون خطة خمسية أو عشرية؟ هل لديكم تصور للمستقبل؟ هل عندكم هدف تسعون إليه؟

قلت لها: أما عن الخطط والتخطيط والأهداف فما أكثرها في العصر الحميري! وهي شغلنا الشاغل وهمنا الحقيقي ومحور اهتمامنا، وأغلب مادة صحافتنا وإذاعاتنا وتليفزيوناتنا، فانتظري يا خواجاية حتى يصبح الصباح، وأحكي لك عن الخطط والتخطيط والأهداف!

١/٦/١٩٩٠م

المعرَّش ... والمكرَّش

قالت البنت الفرنساوية وهي تتمطع وتتقصع: حدثني أيها الحمار الصغير عن التخطيط في بلادكم وعن المخطِّطين عندكم.

قلت لها: أما عن التخطيط فليس في الدنيا كلها تخطيط مثل الذي عندنا. أما عن المخططين، فكل الشعب يخطط؛ أحيانًا على ورق، وأحيانًا على حجر، وأحيانًا على بلاط، ادخلي أي دورة مياه في بلاد العصر الحميري، ستكتشفين أن كل الرواد تركوا خطوطًا على الجدران وعلى الأبواب؛ البعض يرسم أشكالًا، والبعض يكتب خطوطًا. انظري إلى أي سيارة تمشي في بلاد العصر الحميري، ستجدين خطوطًا ظاهرة عند المؤخرة: «يا ناس يا شر بطلوا قر»، و«ما تبصليش بعينك الرضية، بُص للفلوس اللي مدفوعة فيَّه»، و«الحلوة دي اسمها فوزية»، و«الصبر جميل»، و«سيري بأمر الله»، و«مع السلامة يا أبو وردة».

و«الوزة دي بالشيء الفلاني» في بعض مناطق أخرى من العصر الحميري ستجدين كتابة من نوع آخر: «إلى الأمام يا محروسة إلى الأمام»، و«يا متعاظم، أعظم منك الكاظم»، و«أحسن البلاد فين، بلد الحسن والحسين».

قالت: ولماذا يخططون على الحوائط وعلى السيارات ولا يخططون على الورق؟

قلت: لأن التخطيط على الورق يعتبر في بعض بلاد العصر الحميري نوعًا من أنواع المغامرة، وفي بعض المناطق من العصر الحميري يعتبر التخطيط على الورق جريمة، والورقة المخطوطة يسمونها منشورًا، ومخطِّط المنشور يقدَّم للمحاكمة بتهمة قلب نظام الحكم بالقوة.

قلت: مسألة غريبة! كيف يُتهم بقلب نظام الحكم بالقوة، مع أن كل الذي ارتكبه جريمة التخطيط على ورقة؟!

قلت: جريمة حمل الورقة في بعض مناطق العصر الحميري أخطر من جريمة حمل السلاح، والقاتل في العصر الحميري يعامَل في سجنه معاملةً أفضل من معاملة مخطط المنشور، ويفرَج عنه بنصف المدة إذا كان حسن السير والسلوك. أما مخطط المنشور فهو سيقضي مدة الحكم كلها، ويوم الإفراج عنه لن يغادر السجن إلى الشارع كبقية المساجين، ولكنه سيخرج من السجن إلى إدارة الأمن في بعض المناطق، وإلى المباحث العامة في مناطق أخرى، وإلى مباحث أمن الدولة في مناطق ثانية، وإلى المخابرات في مناطق ثالثة، وقد يخرج إلى الشارع، وقد يعود مرةً أخرى إلى سجنه.

قالت البنت وقد اندهشت وانبهشت: هل يوجد قاضٍ في هذه الأماكن؟

قلت لها: السجن في بلاد العصر الحميري لا يحتاج دخوله دائمًا إلى حكم من القاضي؛ فلدينا في العصر الحميري أبواب أخرى لدخول السجن؛ وذلك تيسيرًا على المواطنين من الذهاب إلى المحكمة والوقوف في قفص الاتهام، واستئجار محامين، وصدور أحكام، ثم استئناف هذه الأحكام، وبدلًا من خوتة الدماغ ووجع القلب، يمكن للمواطن أن يذهب إلى السجن بأمر من المباحث أو بتليفون من المخابرات، أو بكلمة من عضو القيادة القطرية، أو بأمر شفوي من عضو اللجنة الشعبية، أو لمجرد رغبة أبداها الشيخ، وأحيانًا ابن الشيخ.

قالت: ويدخل الشخص السجن من أجل هذا؟

قلت: ويموت فيه أحيانًا، ومن يسأل عنه يدخل السجن هو الآخر.

قالت: وهل هذا الإجراء قانوني؟

قلت: بل هو القانون ذاته؛ فلدينا في بعض بلاد العصر الحميري قوانين شتى؛ قانون الطوارئ، قانون الاشتباه، قانون التحفظ، قانون الاعتقال. وبعض قرارات الاعتقال تصدر أحيانًا وبهذا النص: «يعتقل أفراد جماعة كذا أو تنظيم كذا والمتعاطفون معهم والموجودون عندهم لحظة اعتقالهم»، ويتصادف أن يكون لدى المقبوض عليه لحظةَ اعتقاله عمته بهانة وزوجها سيد أحمد وابنها عبد الشكور، فيلقى القبض عليهم أيضًا ويذهبون في الكازوزة يا وِلداه. في منطقة من مناطق العصر الحميري اتُّهم بعض الوزراء بتدبير انقلاب ضد نظام الحكم.

قالت البنت تستفسر: تقول وزراء!

قلت: نعم، ولعلمك، لم يكن هؤلاء المتهمون وزراء فقط، ولكن كان من بينهم أعضاء في مجلس قيادة الثورة، وقد قُدم بعض هؤلاء المتهمين إلى المحاكمة، وذهب بعضهم

إلى المعتقل، أما الذين حوكموا، فقد أُعدم بعضهم وذهب البعض الآخر إلى السجن، أما المعتقلون، فلا أحد يعلم مصيرهم حتى الآن.

قالت البنت وهي تكاد تبكي: ولماذا لم يحتج أهلهم؟ ولماذا لم يلجئوا إلى جمعيات حقوق الإنسان؟

قلت: في العصر الحميري لدينا جمعيات لرعاية الحيوان، أما الإنسان فليس له جمعية حتى الآن؛ باعتبار أن هذا الصنف من المخلوقات يمثل أقلية وسط أغلبية من جميع أصناف الحيوان، ثم إن هؤلاء المعتقلين ليس لهم أهل على الإطلاق.

قالت: تعني أنهم مقطوعون من شجرة؟

قلت: لا أعني هذا بالضبط، ولكن هؤلاء المعتقلين كان لديهم أهل قبل الاعتقال، وبعد الاعتقال اختفى أهلهم بقدرة قادر.

قالت البنت الخواجاية: هل ذهبوا في رحلة سياحية للترويح عن النفس؟

قلت: بل ذهبوا حيث لا يعلم إلا الله، وبعض الحكومات في العصر الحميري تأخذ بالأحوط، وما دام فرد من الأسرة متهمًا بالتآمر، فلا بد أنه من أسرة كلهم متآمرون، ولما كنا نؤمن بنظرية العرق دساس، فلا بد من أخذ الحيطة حتى لا يتكرر نفس الأمر من نفس الأسرة، وطبقًا لهذه النظرية، تلجأ بعض الحكومات في العصر الحميري إلى القبض على أسرة المتآمر الذي ذهب وراء الشمس، بينما تلجأ حكومات أخرى إلى القبض على الأسرة ونسف بيتها من أساسه.

قالت: وإلى أين يذهبون؟

قلت: في السجون مكان لكل مواطن، ومن تضيق به السجون تتسع له المقابر.

قالت البنت وقد داخت وناحت: ولكن لماذا كل هذه الاحتياطات؟ هل كان ينوي هؤلاء المتآمرون إغراق البلاد وإحراق العباد؟

قلت: بل كانوا يريدون ما هو أبشع من ذلك.

قالت: أبشع من ذلك! ما هو هذا الشيء الذي أبشع من إغراق البلاد وإحراق العباد؟

قلت: هناك ما هو أبشع.

قالت: وما هو هذا الأبشع؟

قلت: كانوا يريدون الاستيلاء على الحكم.

قالت: كل هذا من أجل رغبتهم في الاستيلاء على الحكم! وفيها إيه إذا استولوا على الحكم! ربما كانت لديهم برامج أفضل أو حلول للمشاكل أسرع.

قلت: عيبك يا خواجاية، أنك بالرغم من بقائك إلى جواري كل هذه المدة الطويلة، لا تزالين تعيشين خارج العصر الحميري، وتفكرين بعقلية غير عقليته.

قالت: ما الذي تعنيه؟

قلت: الخلاف حول الحكم عندكم يتلخص في خلاف بين البرامج؛ حزب يريد تطبيق الاشتراكية، وحزب يدعو إلى الرأسمالية، حزب ينادي بالتأميم، وحزب يدعو إلى فتح الباب أمام الرأسمال الحر، ويرفع شعار دعه يعمل، دعه يمر؛ ولذلك لا بأس من تداول الحكم في بلادكم؛ ناس تحكم وناس تعارض حتى يأتيها الحكم.

ولكن الحكم في العصر الحميري يختلف؛ الحكم في العصر الحميري هبر على وِدنه، وعلم بلا حدود، ونفوذ إلى آخر المدى، نفوذ لم ينعم به رمسيس أو تحتمس أو جلجامش أو عمر بن الخطاب أو مروان بن عبد الحكم أو هارون الرشيد، وستجدين في بعض المناطق من العصر الحميري خمسين وزيرًا في الحكومة يحملون نفس الاسم، وستجدين في بعض المناطق الوالد رئيسًا للدولة، والابن رئيسًا للرياضة، وابن العم قائدًا للجيش، وابن الخالة رئيسًا للمخابرات، وجوز العمة رئيسًا للمباحث، وأما الميزانية فهي من أسرار العائلة، لا يصح للغرباء أن يطَّلعوا عليها، والحكم في العصر الحميري لذائذ وإطلاق للغرائز، وتقلب في النعيم، ومصمصة في الصميم؛ ولذلك أغلب حكَّامنا يعيشون في حالة الوضع «يا قاتل أو مقتول».

قالت البنت وقد لوت بوزها: إذن فالحكم في العصر الحميري مشغول طول الوقت بحراسة الحكم.

قلت: مظبوط، وأضيف: والذين خارج الحكم مشغولون بالاستيلاء عليه.

قالت: بالرغم من المهالك والقتل والسحل وهدم البيوت؟

قلت: نعم، من أجل الحكم يهون كل شيء وأي شيء. لدينا في العصر الحميري من يقضون الصيف في أوروبا والشتاء في آسيا، ولدينا من يدفع للصحف مليارات من الدولارات لكي يكتبوا عن حكمته وعن عبقريته، عندنا من يُهدي الساعات ومن يهدي السيارات ومن يهدي القصور والعمارات، وعندنا من يسافر ومعه حاشيته، والبعض يسافر ومعه قبيلته، وأحد أبناء العصر الحميري موجود الآن في أوروبا في معيته ألف شخص، وهو في المنفى الاختياري، يصدر جرائد ويدير إذاعة، مع أنه قبل أن يصل إلى السلطة كان أنضف من الصيني بعد غسيله. ولدينا ضباط استولوا على السلطة في بعض مناطق من العصر الحميري، ولم يستمروا في السلطة أكثر من عدة شهور، وأحيانًا

أكثر من عدة أسابيع، ومع ذلك يعيشون الآن في أوروبا عيشة هارون الرشيد، الذي كان السحاب الشارد في أنحاء مملكته يمطر في أي مكان، فيحصل على خراجه.

قالت البنت وهي شديدة العجب: ومن أين حصلوا على هذه الفلوس؟

قلت لها: عندنا في العصر الحميري يحصل على الفلوس كلٌّ حسب نيته! وأغلب حكام العصر الحميري، والحمد لله، من أصحاب النيات الطيبة؛ ولذلك يسهِّل الله لهم طريقهم وينجح مقاصدهم.

قالت: نيتهم حلوة وعرفنا، ولكن من أين جاءت لهم الفلوس؟

قلت: لم يسأل أحد حتى الآن هذا السؤال؛ لأن السؤال في العصر الحميري عيب، وأحيانًا مذلة.

قالت: أيها الحمار، دوختني معك، وجرجرتني وراءك، كنا نتحدث في التخطيط، فأخذتني معك إلى متاهات، ما علاقة هذا الذي يعيش في الخارج ومعه ألف مخلوق ونيته الحلوة حققت له ثروة بعشرة آلاف مليون؛ ما علاقة كل هذا بالخطط والتخطيط؟

قلت: إن العلاقة بينهما عضوية وضرورية؛ فكل الذين استولوا على السلطة واغتنوا من فضل الله، خططوا في البداية للاستيلاء على السلطة، ثم خططوا للاستيلاء على الثروة؛ وهكذا كان التخطيط هو الأساس.

قالت: إذن لا يوجد عندكم تخطيط للبناء؛ تخطيط لتحقيق الأهداف.

قلت: يا خواجاية، هذا النوع من التخطيط ليس أكثر منه في العصر الحميري، والعصر الحميري كله مشغول بالتخطيط من أجل بناء الهجمات؛ تمهيدًا لإحراز الأهداف. ولدينا في بلادنا من أجل هذا التخطيط عشرات من الخبراء الأجانب، بعضهم يحصل على دخل سنوي لم يحصل عليه إمبراطور الصين، من بين هؤلاء واحد اسمه البيجالو اشتغل عندنا في عدة مناطق، وبالرغم من دخله الكبير وعيشه الوفير، كان يتكلم مع الحمير تبعنا من طراطيف أنفه، مع أن غاية ما حققه من نجاح هو انتصار فريق حميري على فريق حميري آخر، ولدينا مخطط آخر اسمه السايس، يجلس في المدرج ومعه قراطيس وأقلام، ويظل يخطط طوال المباراة، ومع ذلك ينهزم فريقه من الأوليمبي ويخرج من الكأس على يد السكة الحديد، ولدينا مخطط آخر يشتغل في التهريب وفي التهليب، ويستغل فريق الكورة في التهريب، أحيانًا من بورسعيد وأحيانًا من بورتثماوث، وعندنا مخطط آخر يتقاضى مرتبًا يفوق مرتب أي رئيس جمهورية في بلاد الغرب، ومع ذلك أدى تخطيطه إلى هزيمة منتخبه الذي يدربه والذي يؤهله لكأس العالم: ستة/صفر وخمسة/صفر وسبعة/صفر، وبالرغم من ذلك تنهال عليه المكافآت والإكراميات من كل صوب وحدب.

قالت البنت الفرنساوية: عجايب! ينهزم ويحصل على المكافآت؟

قلت: نعم؛ لأننا من جنس يستوي عنده الموت والحياة، والفوز والخسارة، المهم يستمع المخطط إلى اقتراحات الشيخ أو ينفذ رغبات الأمير، أو يطبق خطة الرئيس، أو يلبي أوامر الوزير، أو يطيع تعليمات الخفير، المهم عندنا هو إشباع مزاج المتنفذين، والمخطط إياه لا يرفض طلبًا ولا يرد متعشمًا ولا يصد أحدًا من أصحاب النفوذ.

قالت البنت الفرنساوية وقد غلب حمارها وخاب أملها: أنت تتكلم عن التخطيط في الكورة، وأنا أتكلم عن التخطيط في الدولة.

قلت: أعوذ بالله من غضب الله، التخطيط في أمور الدولة تجديف وتخريف وتحدٍّ للمشيئة، وأمور الدولة تمشي بالبركة، وتسير على فيض الكريم، والله جاب والله خد؛ هو الشعار المرفوع، واصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب؛ هي الخطة الخمسية، وخد من دقنه وافتلله؛ هي الخطة القومية في العصر الحميري، ولبِّس ده طاقية ده؛ هي الطريقة المثلى في التجارة والاقتصاد، وامشِ قدام عدوك معرش ولا تمشيش مكرش؛ هي حكمة الأمن الغذائي في بعض مناطق العصر الحميري، وكُلِ اللي يعجبك والبس اللي يعجب الناس؛ هي محور الحياة في مناطق أخرى من العصر الحميري. وفي الاقتصاد، نحن نسير حسب نظرية اقتصادية لا تخر المية، نظرية لم يتوصل إليها ماركس، ولم يكتشفها شاخت؛ نظرية يا بخت من نفَّع واستنفع، ومن هذه النظرية الحميرية تتفرع نظريات أخرى كثيرة؛ أهمها نظرية: اطعم الفم تستحي العين، ونظرية تراعيني قيراط أراعيك قيراطين، ونظرية تشيلني وأشيلك، ونظرية من خد وأعطى صار المال ماله. كلها نظريات اقتصادية أثبتت جدواها، وفوائدها مضمونة، وتحت مظلتها نشأ عباقرة أعظم من روكفيلر، وأحدق من هيلتون، وأذكى من الخواجة بتاع كنتاكي فرايد تشيكن.

قالت البنت الفرنساوية مشغوفة وملهوفة: تقول أذكى من كل هؤلاء؟

قلت: وأعظم من هؤلاء أيضًا؛ لأن هؤلاء المليونيرات الخواجات اشتغلوا بالفندقة، أو تاجروا بالنفط، أو افتتحوا محلات لبيع الفراخ، ولكن المليونيرات الحمير لم يتاجروا في شيء، ولم يدخلوا السوق ببضاعة، ولكنهم شالوا وشيَّلوا وأطعموا الأفواه فاستحت العيون، ونفَّعوا الآخرين واستنفعوا بشدة، وصاروا بالشطارة والذكاوة والفهلوة ملياردير، يُشار إليهم بالحوالات والشيكات ودفاتر التوفير؛ الملياردير الريان والملياردير توفيق عبد الحي والملياردير الفولاذية وعشرات من نجوم المال والاقتصاد؛ دخلوا السوق وهم أفرغ من زجاجة كازوزة مرمية في صندوق زبالة، وخرجوا من السوق مثل برميل ويسكي معتق ومحفوظ في قبو تحت مصنع ويسكي في اسكتلندا.

قالت: إذن أفهم من ذلك أنه ليس لديكم وزراء للتخطيط.

قلت: بل لدينا منهم عدد يفوق عدد المشجعين في مباراة الافتتاح في كأس العالم.

قالت: ما هي مهمتهم على وجه التحديد؟

قلت: مهمتهم الأولى هي التخطيط للماضي، بعضهم يؤيد بشدة العودة إلى الوضع الاقتصادي الذي كان سائدًا في عصر سمعان بن كحكوح، والبعض الآخر يعارض هذا الاتجاه بشدة؛ باعتبار أن عصر سمعان بن كحكوح من العصور القديمة؛ ولذلك يطالب هذا البعض بضرورة الالتزام بالقواعد التي كان معمولًا بها في عصر عباس بن فرهود، البعض منهم متمسك باقتصاد الخلافة، والبعض ينادي بتطبيق اقتصاد السلطنة، وهناك قلة قليلة تنادي بالالتزام بأسلوب بيت المال، ولكن هناك اتفاق بين الجميع على أن البركة هي الأساس، وأن الرك على النية؛ باعتبار أن الدنيا في الحقيقة للمسعودين وليست للموعودين، وتجري جري الوحوش غير رزقك ما تحوش، وكل الأنهار تصب في البحر والبحر ليس بملآن، والغنى غنى النفس، والقناعة كنزٌ لا يفنى؛ ولذلك ستجدين مناطق في العصر الحميري أهلها يأكلون البسكويت، ومناطق أخرى أهلها يأكلون الحندويل، ناس تلقى الفلوس في التراب، وناس تلحس التراب، ناس تستورد كبد العصفور والجبنة الركفورد وعُرف الديك الكوكور، وناس تفطر بالدود وتصطاد الغراب للعشاء.

وهي أحوال ناتجة عن تخطيطنا الممتاز، وجهد المخططين تبعنا الأفذاذ، والحمد لله ... الحمد لله ... الحمد لله الذي لا يحمد — يا خواجاية — على مكروهٍ سواه.

قالت البنت الفرنساوية: يخرب عقلك! حمار عفريت مجنون وصاحب خيال، شوقتني إلى رؤية هذا العصر الحميري، والغريب الأحوال والأطوار، هل تسمح الآن بأن تأخذ بيدي وتخطف رجلك معي للعصر الحميري، بما فيه من أحوال وأهوال؟

قلت: على مهلِك يا خواجاية، فالدخول للعصر الحميري يحتاج إلى تأشيرة وإلى تأمين وإلى تمهيد، وفي بعض المناطق يحتاج إلى تمويل وإلى تحويل، فاصبري حتى الغد فإن الله مع الصابرين.

١/٧/١٩٩٠م

الحنجوري ... والباطنية

قالت البنت الكركورة: عليك اللعنة! حمار وخبيث! جحش ولئيم! شوقتني إلى العصر الحميري ثم تتخلى الآن عني، وتنصحني بالصبر الجميل! لماذا لا تصحبني الآن وعلى الفور في جولة في أنحاء العصر الحميري؟ فأنا أتحرق شوقًا إلى رؤية هذا العالم الجميل!

قلت للبنت الكركورة: المسألة ليس فيها خبث أو لؤم، المسألة ببساطة أنك تستطيعين السفر إلى العصر الحميري بمفردك، ولكن ذهابي معك سيكون مغامرة خطيرة قد تنتهي بنا إلى ما لا يُحمد عقباه.

قالت البنت: ألست أنت من أبناء العصر الحميري؟

قلت: بل محسوبك من الحمير المعدودين.

قالت: وأين المشكلة الآن؟

قلت: هذه هي المشكلة ... فلو أنك ذهبت وحدك لفتحوا لك الأبواب والنوافذ أيضًا.

ولكن وجود حمار مثلي معك يعقد المشكلة، ويجعل منها جريمة أمن دولة بالتأكيد؛ فوجودي معك يجعلني هدفًا لقسم مكافحة الجواسيس، فبالرغم من عشق النظم الحميرية للأجانب، إلا أن الاتصال الفردي بهم يصبح جريمة، وفي العصر الحميري كل مواطن خائن حتى لو ثبت العكس!

قالت البنت الفرنساوية: لا بد أن لديكم أسرارًا تخافون عليها وتحرصون على أن تبقى في الحفظ والصون!

قلت: عندنا طبعًا ما نحرص عليه؛ لدينا قاعدة الصواريخ عابرة القارات في أم القوين، ولدينا قاعدة الغواصات الذرية في أم درمان، وعندنا محطة إطلاق الأقمار الصناعية في أم خنان، وعندنا أيضًا بلاوي متلتلة وأسلحة مولولة في بني مزار وبني سليم وبني غازي.

قالت البنت الكركورة: إذن حكوماتكم عندها حق في منعكم من الاتصال بالأجانب؛ فأسرار خطيرة مثل هذه الموجودة في أم خنان وأم درمان؛ لا بد من الحفاظ عليها كنور العين.

وسكتت البنت الخواجاية وقالت: ما رأيك لو ذهبنا في جولة إلى العصر الحميري ونحن آخر حصانة وفي المضمون؟

قلت: وكيف؟

قالت: نتزوج ... ونسافر زوجًا وزوجة، وعندئذٍ نضمن الأمان والاطمئنان.

قلت للبنت الفرنساوية: مصيبة العبد في حضرتك أنك لن تفهمي العصر الحميري حتى لو سُمح لك بالعيش فيه عشرة أعوام، إن الزواج لن يمنع وقوع الكوارث ... وربما كان سببًا في الموت حرقًا أو رجمًا بالحجارة.

قالت: ليه؟

قلت: أولًا أنا رجل مسلم وسأدخل الجنة بإذن الله، وزواجي من امرأة مثلك ترتدي الميني جيب، وتدلدل نصف صدرها، وتكشف عن معظم ساقيها؛ سيثير ثائرة المسلمين الذين يولون وجوههم شطركم، وسيحكمون على العبد لله بأنني مرتد وأستحق الحرق بالنار.

سألتني البنت: وهل كل الناس في العصر الحميري مِن هؤلاء؟ أجبتها: لا ... إنهم في الحقيقة أقلية، ولكن أصواتهم عالية، وأيديهم طويلة، وخناجرهم مسمومة، وحكمهم نافذ لا يقبل أي نقض أو استئناف، قالت: ما داموا أقلية نستطيع البعد عنهم ونقيم مع المثقفين وأصحاب العقول.

قلت: إذا فعلنا ذلك نكون كالهاربين من الرمضاء للنار؛ المثقفون الحمير حالهم أعجب وسلوكهم أغرب، إذا شاهدَنا هؤلاء الذين يولون وجوههم شطر موسكو فسيقولون: هذا ليس عقد زواج، ولكنه عقد شركة لإنتاج خدمات تآمرية لخدمة الطبقة البورجوازية ولتحقيق أهداف الإمبريالية.

قالت البنت وهي تكاد من شدة الضحك تتشقلب: ولكن الآن وبعد عمك جورباتشوف لم يعد أحد يستعمل هذه اللغة الحنجورية.

قلت: أنا أعلم ذلك وأنتِ أيضًا؛ حتى في موسكو قِبلة العالم الحنجوري سارت المظاهرات تهتف بسقوط لينين، وتطالب بنبش قبر ماركس، ولكن دراويش الماركسية في العصر الحميري لا يزالون مخلصين للعهد الذي قطعوه على أنفسهم.

قالت: غريبة! لو كان الأمر اقتصر على المظاهرات في موسكو، لقلت: ناس عندهم مبادئ ومعهم العذر؛ فالمبادئ يختلف حولها الناس؛ ناس معها وناس ضدها، ولكن الذي حدث لم يكن خلافًا على المبادئ، لقد كان إنكارًا للمبادئ وثورة عليها؛ والدليل على ذلك أن الروس الشيوعيين اللينينيين الماركسيين يقفون الآن في طوابير أطول من طابور الجمعية الاستهلاكية؛ لكي يحصلوا على قطعة هامبورجر من مكدونالد الأمريكي، ويشفطوا شفطة من مشروب الكولا بتاع العم سام. وبعد سقوط شاوشيسكو في رومانيا صارت بيوت الدعارة في بوخارست تنافس في الكم والكيف بيوت الدعارة في ستوكهولم، وبعد أن أصاب التغيير ألمانيا الشرقية تضاعف عدد المتعطلين، وأصبحت الغالبية العظمى من المتسولين، وشحَّ الطعام في الأسواق وارتفعت الأسعار، ومع ذلك لم يرتفع صوت واحد ينادي بالعودة إلى أيام الحزب الشيوعي الألماني، وإن كانت هناك أصوات ارتفعت تطالب بالعودة إلى أيام هتلر، والناس في ألبانيا هربت من الحدود عرايا بلابيص، وبعض الهاربين هددوا بالانتحار إذا أعادوهم إلى بلادهم، فهل لا يزال في العصر الحميري أحد يدافع عن النظم الشيوعية؟

قلت: للأسف يا خواجاية، في الراية كتب الحناجرة، نسبة إلى الحنجوري، يهاجمون الحمير أمثالي الذين هاجموا الظاهرة، وقالوا إن السبب في الخيبة ليس الماركسية، ولكنها النظم التي حكمت باسمها، وإن بعض عملاء الإمبريالية والرأسمالية الذين زرعتهم المخابرات المركزية الأمريكية داخل الأحزاب الشيوعية؛ تمكنوا في النهاية من الانحراف بالمسيرة الماركسية إلى هذه النهاية المفجعة. وقال السادة الحناجرة: إن البروسترويكا هي عملية نقد ذاتي على مستوى عالٍ، وإنها تستهدف إعادة البناء لمصلحة العمال والشغِّيلة، ومن أجل بناء الحنشكوني في سبيل خيركاسوني، وللسماح بالتقابل المتضامن على طريق الوعد المتزامن.

قالت البنت الفرنساوية: يقولون من أجل بناء الحنشكوني في سبيل خيركاسوني. وخيركاسوني كما تعلم كابتن اشترك في كأس العالم، فما علاقة كأس العالم بكأس الأمم الشيوعية؟

قلت للبنت الفرنساوية: أصدقاؤنا فرع الحنجوري من الحزب الباطني أيضًا، وهم لا يهتمون كثيرًا بالمعنى الظاهر، ولكنهم يهتمون على نحو خاص بالمعنى الباطني، والمعنى الباطني في الحقيقة أهم بكثير من المعنى الظاهر للأفهام؛ ولذلك اختاروا جازكاسوني بالذات، أولًا لأنه لعيب شهير للغاية، وثانيًا لأنه كان السبب في إحراز الهدف القاتل في

مرمى فريق مصر، والذي كان السبب في حرمان العالم الثالث من بطاقة إلى الدور الثاني. وقالت: لأن جازكاسوني أحاطوه قبل المباريات بدعاية جعلت منه أعظم لعيب في العالم.

وقالت الدعاية: إنه أعظم من بوشكاش، وأحرف من بيليه، وأخطر ألف مرة من دستيفانو، وأكثر لياقة ومهارة من مارادونا، ولكن أداء جازكاسوني في مباريات الكأس لم يؤكد هذا الزعم؛ كان لعبه «مش بطال» مثل غيره من الكباتن، واستخدم العنف بدل المهارة، فحصل على انذارين وطردوه من الملعب، وجلس على الدكة إلى جانب المدرب في المباراة الحاسمة على المركز الثالث بين إنجلترا وإيطاليا. وقف بعد المباراة يبكي كما بكت خالتي بهانة بعد أن مات زوجها في حادث جرار على الطريق الزراعي.

قالت البنت الفرنساوية وقد نفد صبرها: من وصفك أيها الحمار لجازكاسوني تأكد أنك تابعت كأس العالم وعرفت خباياها، ولكنك لم تكشف لي عن العلاقة بين جازكاسوني وما حدث في الدول الشيوعية، ولماذا خلط الماركسيون تبعكم بين البروسترويكا وجازكاسوني؟

قلت: الأمر يا خواجاية في غاية البساطة؛ الماركسيون تبعنا لعبوا مع العالم الشيوعي دور الإعلام مع جازكاسوني، قالوا إنه أعظم نظام وأبدع نظام وأجدع نظام، وإن المواطن في النظام الشيوعي أفلت بجلده من كل أمراض العصر؛ فهو يأكل طعامًا صحيًّا وإن كان بلا طعم، وهو ينام مبكرًا ويستيقظ مع العصافير المغردة؛ لأن لديهم في الوطن الشيوعي أشغالًا لا بد من إنجازها، وفعاليات لا بد من إبرازها؛ ليس لمصلحة الفرد، ولكن لمصلحة الشعب، وقالوا: إنهم هناك نجوا من خبل العصر وجنونه، فلا موسيقى روك أند رول، ولا أفلام جنس، ولا رسم سيرالي الذي هو شخبطة رسمها ذيل حمار!

وقالوا: إن المرأة في المجتمع الماركسي كرامتها مصونة وعفتها في الحفظ والصون؛ ولذلك لم تجد عاهرة واحدة في العالم الشيوعي، ولكن ... إذا حدث لقاء وعناق والذي بالي بالك، بالإنسانية الفياضة المترامية على مدد الشوف، وتأكيد على أن الرجل والمرأة متساويان في الحقوق وفي الواجبات.

قالت البنت الفرنساوية وقد أرعشت حاجبيها دهشة واستنكارًا: ولماذا كل هذه اللغة الطويلة؟ لماذا لم يشرحوا الأمر للناس على الفور؟ خصوصًا أن الناس لا تعرف جازكاسوني هذا الذي لعب بعض المباريات في كأس العالم.

قلت: يا خواجاية، كل شيخ وله طريقة، وهؤلاء السادة الحمير إياهم يتبعون الطريقة الباطنية.

قالت البنت الفرنساوية تسأل: الباطنية نسبةً إلى علم الباطن؟

قلت: بل نسبة إلى حي الباطنية، وهو حي عريق وشهير في القاهرة المعزية، وسكَّانه يبيعون للناس المزاج والخيال والأسلوب الحنجوري المبطوني؛ خصوصًا أن الصنف المتداول في الباطنية من النوع المضروب. وبعد أول نفَس يشده الباطني يخلط على الفور بين الخيال والواقع، ويبدأ الباطني في استخدام لغة الحنجوري، فيقول مثلًا: مساء الهنجفة؛ بدلًا من مساء النور. والهنجفة كلمة مركبة من كلمتين: ها ... ونجف، أما الـ ها، فهي كناية عن المستقبل، يقول الرجل: ها ... ناكل، ها ... نشرب، ها ... نسافر؛ أي: إنها إشارة إلى فعلٍ قادم.

أما النجف فأنتِ تعرفين وظيفته، وهي التنوير بشدة وتكثيف الأضواء في مساحة محدودة، وهكذا تجدين أن المعنى واحد وإن اختلفت الصياغة.

قالت: يا سلام ... إنه علم غويط وعريض، وهي نظرة إلى ما وراء الهيلولة، ونفاذ إلى ما وراء الغيب.

قلت: هي بالضبط كذلك؛ ولذلك أيضًا لجأ بعض الماركسيين من صنف الحمير، الذين أَثْروا من عمليات كهربائية مشبوهة في بلاد العصر الحميري، إلى إنشاء حزب أطلقوا عليه حزب التنوير.

السذَّج يتصورون أنهم يقصدون تنوير الأمة للابتعاد عن طريق الغمة وسلوك الطريق الصحيح، بينما أصحاب الحزب يقصدون الكهرباء التي كانت قدم السعد عليهم ووش الخير.

أما مدعي الناصرية الكهربائي، فقد خرج من الكهرباء إلى المركز العربي للثقافة والمباحث .

قالت البنت الفرنساوية: وما علاقة الثقافة بالمباحث؟

قلت: في الحقيقة هناك علاقة وثيقة بينهما؛ فالمباحث هنا لا تعني جهاز الشرطة الذي نعرفه، ولكنها تعني البحث العلمي المبرمج على أسس بحثية ودراسات مبنية وملوخية بالتقلية.

قالت البنت الفرنساوية: لقد تركت موضوعنا ودخلت في موضوع آخر.

قلت: بالعكس، إن المواضيع كلها مترابطة، وسكك أبو زيد كلها مسالك، وأحزاب الكهرباء كلها شيوعية أو ناصرية أو أمريكية؛ تثبت أن المبادئ كلها عظيمة، ولكن الذين ينتحلونها يكونون أحيانًا من أرذل أنواع الناس؛ عمك هونيكر في ألمانيا الشرقية عاش مثل السلطان يلبغا المهندار، كان لديه قصور وحمامات سباحة وبنات في عمر الورد،

وعمك جيفكوف بتاع بلغاريا كان ولده يلعب القمار في لندن ولا عمك الشيخ عجنون بن شنكح والنصاب الناصري عبد الحميد بن سنفريد؛ أثرى بقدر تلاعبه بالمبادئ، وجمع من الفلوس مليون ضعف عدد كلمات الأحاديث النارية التي أدلى بها للجرائد، وسرق حتى من محلات ماركس أند سبنسر بلندن، وكتبت بعض الصحف العربية أن التهمة من تدبير الأعداء والصهاينة، مع أن ابن سنفريد حرامي ابن حرامية ومسجل خطر في جميع أجهزة الأمن العام. المهم أن الانهيار عندما حدث في العالم الماركسي، قال الحمير تبعنا: إنها حركة تطهير تتم من الداخل لمصلحة الاشتراكية والطبقة العاملة الفتية، فلما اتضح للجميع أن المسألة هي انهيار كامل للنظام وإفلاس كامل للنظرية، لم يسكتوا ولم يكفُّوا.

بعضهم كتب يقول: إن الاستبطان الاستغلاقي المتعانق مع الحواشي والشواشي كان لا بد أن يُقهر أو يتقهقر!

وبعضهم جن جنونه واتهم جورباتشوف بأنه دسيسة أمريكية وعميل للمخابرات المركزية، وأنه قابض فلوس من جهاز كنتاكي فرايد تشيكن للفراخ المشوية! ولا يزال الحبل على الجرار، والرفاق يضربون أخماسًا في أسداس، ولا يعرفون كيف يتصرفون بعد أن حدث الزلزال ووجدوا أنفسهم بين الأنقاض .

قالت البنت الفرنساوية وهي تكاد تبكي: إنه موقف صعب، صدِّقني، ربما كانوا سذجًا آمنوا بإله ثم اكتشفوا فجأة أنه صنم لا يضر ولا ينفع، ولو كنت أنت مكانهم لحدثت لك نفس الديخوخة، وربما أصابتك نفس الشيخوخة، وربما لطمت على خديك بالشبشب من إنتاج إيف سان لوران.

قلت: عندك حق يا خواجاية؛ فهؤلاء الرفاق تبعنا أشبه بوكيل شركة سيارات، وهو نازل إعلانات عمَّال على بطال على حلاوة الصنعة، ودقة الأداء، وانسياب الخطوط، وسعة الصالون، ودقة المحرك، وقوة الأضواء، ومتانة الكاوتشوك، ثم فجأة أفلس المصنع نفسه وقال في حيثيات الإفلاس: لقد كانت البضاعة سيئة والصناعة أسوأ، وكانت السيارة إذا سارت توقفت، وإذا توقفت تمزقت، وإذا تمزقت تناثرت، ولكن الناس كانت تركبها وتحمد الله؛ ليس لأنها جيدة، ولكن لأن وراء كل راكب مخبرًا يمسك بخناقه ويكتم أنفاسه، ويجبره على أن يهتف مجبورًا: يا سلام!

قالت البنت الفرنساوية: الله يخيب حضرتك! هؤلاء الرفاق هل علينا خطر من الاتصال بهم إذا ذهبنا إلى هناك؟ هل هناك في بلاد الحمير من نخشى لقاءهم معًا غير أصحاب اللحى وأصحاب الحنجوري؟

قلت: ذهابك وحدك إلى بلاد العصر الحميري أسلم وأكسب، وربما عادت عليك الزيارة بخير وتصبح زيارة وتجارة؛ لأنهم هناك يحبون اللحم الأبيض، ويعشقون الشعر الأصفر، ويغرقون في بحر العيون الزرق.

قالت: عليك اللعنة، إنني باحثة ولست غانية، وأنا أهدف إلى البحث ولا أهدف إلى الخبص، وذهابي مع الضرورة ضرورة حتى أرى بعينيك المعمصتين، وأشم بأنفك المسدودة، وأتذوق بلسانك الذي هو مثل المبرد المسنون.

قلت: على كل حال لقد مضى بنا الليل، فهيا إلى النوم، وغدًا يا صغيرتي ... يوم آخر!

١/٨/١٩٩٠م

كل يوم ... وتغيب

قالت البنت الكركورة وقد بدا عليها الغضب والخصام: أعتقد أنك تكذب عليَّ، وأنك كنت تحكي لي طوال الوقت عن عالمٍ ليس له وجود.

قلت للبنت الغضبانة: ولماذا تعتقدين مثل هذا الاعتقاد؟

قالت: وعدتني كثيرًا أن تأخذني معك إلى العصر الحميري الذي تنتمي إليه، ولكنك في كل مرة تعتذر عن السفر معي إلى هناك، وحاجة من اثنين: إما أنك كذاب ولا وجود لشيء اسمه العصر الحميري، وإما أنك هارب من هناك وتخشى أن تعود مرة أخرى.

قلت للبنت الزعلانة: أما عن العصر الحميري فهو موجود وعامر وعال العال، وبعض أهله هاجوا وماجوا وهجموا على آخرين، والحرب شغالة الآن في العصر الحميري، والجميع في حالة طوارئ، وإذا نشبت الحرب فسيكون الدم للرُّكب، والقتلى بمئات الألوف.

بالإضافة إلى العُمْي والعور والعُرج والكتَّع، هؤلاء بالتأكيد سيتحولون إلى متسولين.

قالت البنت مندهشة: ولماذا قامت الحرب؟

قلت: لا أحد يعرف؛ ففي عصر الحمير لا أحد يسأل عن السبب؛ لأن السؤال عيب، وهو أيضًا قلة الأدب؛ كما أنه مذلة!

قالت: على فرض أن السؤال كما تقول، فهل يمنع هذا أن أعرف لماذا نشبت الحرب في العصر الحميري؟ أليس الجميع سواءً؟ قلت: نعم، ولكن بعض الحمير لها حوافر ولها أسنان، فهجمت على غيرها، وهذه الحمير الحصاوي سبق لها دخول الحرب ولمدة طويلة، وخرجت من الحرب مضروبة ومعطوبة، ومع ذلك احتفلت بالنصر، وانطلقت الزغاريد وانطلقت الصواريخ، وغنى الجميع للمجد الذي بلغوه.

قالت البنت وقد شردت بعيدًا: تقول انهزموا واحتفلوا؟

قلت: نعم، انهزموا واحتفلوا، ثم ذهبوا للحرب من جديد!

قالت: أمَّا حكاية ليس لها مثيل، وما داموا انهزموا، فلماذا يحاربون من جديد؟

قلت: لأن الذين حاربوهم في البداية كانوا من نوع الحصاوي أيضًا، فعضُّوهم ورفسوهم وبهدلوهم وجعلوهم عبرة للآخرين، وكان لا بد للحمير المغلوبين أن يبحثوا عن نصر سهل، فهجموا على حمير من النوع الوديع واجتاحوهم في ساعات، وسبَوا حريمهم، ونهبوا متاعهم؛ وحصل لهم انبساط عظيم.

قالت البنت مذهولة: واحتفلوا بالنصر أيضًا!

قلت: هذه المرة لا ... فالنصر لم يتم بعد، ويبدو أنه لن يكون له وجود؛ ففي العصر الحميري فتوَّات آخرون هبوا لنجدة الحمير الطيبين، والآن يحتشد الحمير على كل الجبهات ويستعدون لإطلاق النار.

قالت البنت وهي تخبط على صدرها: أما حمير بصحيح، إنهم عندما يبدءون في إطلاق النار فسيقتلون أنفسهم، ويخربون بلادهم، لماذا لا يهاجمون إلا جنسهم؟ ولماذا لا يحاربون الذئاب التي تأكل الحمير؟

قلت: آخر حرب للحمير ضد الذئاب كانت منذ حوالي عشرين عامًا، بعد ذلك تفرغوا للحرب ضد أنفسهم، ومنذ ذلك الحين كلما ظهر زعيم من صنف الحمير، فإنه يتصدى للحرب ضد الذئاب في الإذاعة؛ أحيانًا يهددهم بالنسف، وأحيانًا يتوعدهم بالخنق، ولكنه لا يفعل أكثر من ذلك، وكان الحمير سعداء بهذا النوع من القتال؛ فيتظاهرون عقب كل تهديد، ويهتفون للزعيم الذي يقود المعركة في الإذاعة، ويرفعون صورته فوق الأعناق، ولكن عندما يحارب الحمير ضد بعضهم البعض فهم يحاربون في الواقع، ويستخدمون كل الأسلحة؛ من الدبابة إلى الأظافر والأسنان.

قالت البنت وقد اندهشت وانبهشت: وفي أي منطقة تدور الحرب الآن بين الحمير في العصر الحميري؟

قالت: تدور الحرب الآن في منطقة كانت منذ عشر سنوات هي أغنى مناطق العالم، وكان كل أصناف الحمير يقصدونها للعمل والرزق، ويقصدها أيضًا ألوف من صنف النمور والضباع والذئاب والبقر والجاموس؛ للتجارة والزيارة والعمل، وكانت الحياة فيها سهلة، والمشاكل قليلة، والرزق وفيرًا، والسوق مفتوحة، والاستهلاك على وِدنه، والسعادة والطمأنينة ترفرف على الجميع، كان ذلك منذ عشر سنوات بالتحديد، ثم فجأة نشبت الحرب بين الحمير واستمرت ثماني سنوات، وخلال سنوات الحرب الطويلة حارب الحمير بعضهم بالدبابة وبالمدفع وبالصواريخ وبالغازات السامة وبالحِراب وبالسيوف وبالمطاوي، وقتلوا على الجانبين أكثر من مليون ونصف مليون حمار في عمر الورد،

ومسحوا مدنًا بأكملها من على الخريطة، وخسروا مائة مليار دولار كانت كفيلةً بتحويل بلاد الحمير كلها إلى جنة، وتحويل صنف الحمير إلى أسود.

قالت البنت وهي تكاد تبكي من الغيظ: وكيف انتهت الحرب؟

قلت: انتهت بعد أن داخ الحمير على الجانبين، وأفلس الجانبان حتى لم يعُد معهما ما يشتريان به الخبز، فوقف القتال لأنه لم يعُد في مقدور المقاتلين أن يتحركوا.

قالت البنت تستفهم: وتفرغ الحمير بعد الحرب للتعمير والإنشاء؟

قلت: بل تفرغوا لشيء آخر أغرب من الخيال، ففي أيام الحرب صرخ الحمير من صنفنا يطلبون النجدة من الحمير الأشقاء، وزحف أكثر من مليون حمار تلبيةً لنداء الاستغاثة، وحلوا محل الحمير العساكر؛ في المصانع وفي الحقول وفي المتاجر، وعندما انتهت الحرب عند الحدود انتقلت إلى الداخل؛ راحوا يقتلون الحمير الضيوف الذين هبوا لنجدة الحمير الأشقاء؛ ضربوهم واستولوا على ممتلكاتهم، ثم قتلوهم شر قتلة، وحتى جثثهم اختفت عن الأنظار.

قالت البنت وهي تصرخ كالمجنونة: ولكن ليه؟

قلت: بلا سبب؛ لأنها عادة قديمة عند صنف الحمير كان من المفروض اختفاؤها منذ أربعة عشر قرنًا؛ ففي الزمن القديم كان الحمير من فزارة إذا غضبوا من الحمير من بني تميم، هاجموا مضاربهم ليلًا، وسبوا نساءهم وغلمانهم، وقتلوا رجالهم، واستولوا على ما لديهم من خيل وإبل وبغال وحمير.

قالت البنت مقاطِعة: ولكنك تقول إن هذا السلوك كان ينبغي أن يختفي منذ أربعة عشر قرنًا.

قلت: بل إنه اختفى بالفعل فترةً طويلة من الزمان عندما جاءنا رسول برسالة من السماء، دعانا إلى ترك أخلاق الجاهلية والتمسك بأخلاق الإسلام؛ أن نكون إخوة بدلًا من أن نكون أعداء، أن تكون سيوفنا ضد أعدائنا وليس ضد أشقائنا، أن نمتنع عن سفك الدماء إلا دفاعًا عن النفس، بعد هذه البعثة السماوية اتحدت السيوف ضد العدو، وتحولت القبائل إلى أُمة، ودعوا الآخرين إلى رسالة السماء، ونشروها بالفعل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، وأضافوا لتراث البشرية علومًا جديدة، وكشفوا عن عوالم كانت مجهولة، وكانوا سادة الغابة عندما كانت الوحوش الكاسرة تسكن في الكهوف والمغارات، ولكنهم فجأة عادوا إلى طباعهم القديمة، وتفرقوا بعد أن كانوا متحدين، وتنازعوا بعد أن كانوا متفقين، وحتى المخترعات الحديثة حوَّلوها إلى أدوات لأهدافهم الصغيرة.

قالت البنت: مثل ماذا؟

قلت: الإذاعة مثلًا، اختراعها كان بهدف إشاعة المعرفة وإذاعة الأخبار ونشر الموسيقى والفنون على الملايين، ولكن الإذاعة في العصر الحميري تُستخدم للهجوم على حمير آخرين، وبعض الحمير يدَّعون أنهم تقدميُّون، ويتهمون حميرًا آخرين بأنهم رجعيون، والحمير التقدميون يريدون نشر التقدمية في العصر الحميري، فإذا لم يكن بالكلام فـ ... بالسلاح.

وقالت البنت وهي تشد شعرها: وهل هناك تقدميون بالفعل في العصر الحميري؟

قلت: مجرد كلام وهلفطة وضحك على الدقون، فالحمير التقدميون يحفظون بعض العبارات، ويتكلمون ببعض الرطانات، ويرفعون شعارات ليس لها على أرض الواقع وجود، وهم في الحقيقة أكثر رجعية من الرجعيين. والحمار في ظل النظم التقدمية محروم من الكلام، ومحروم من التفكير، ومحروم من الاختيار، ومحروم من السفر، ومحروم من كل الحقوق التي من حق الحمار. الحق الوحيد الذي يمارسه هو التصفيق لقائد الحمير، وتعليق صورته على الجدران، وإبلاغ أجهزته بأي همسة أو لمسة يرتكبها الخلان والجيران.

قالت البنت: ولماذا أطلقوا على أنفسهم وصف التقدميين؟

قلت: ربما لأن كل حمار في ظل التقدمية من واجبه أن يتقدم بتقرير إلى المباحث عما يدور حوله من أحوال وما يتردد حوله من أقوال!

قالت: إذن هو موظف في المباحث!

قلت: أبدًا، هو متطوع لعمل الخير، وليس هناك أفضل من الإبلاغ عن المعارف والجيران.

قالت البنت: وتسمي هذا خيرًا؟

قلت: عيبك كما قلت لكِ ألف مرة من قبل أنك لن تعرفي العصر الحميري مهما بذلت من محاولات، إن ما تتصورين أنه شر بالنسبة لبلادك؛ هو خير بالنسبة لأهل العصر الحميري، فالذين يبلغون عنهم ينتزعهم الزبانية على الفور من الدار للنار، والسعيد منهم من يموت على الفور فيتخلص من عذاب كل يوم؛ ولذلك فالإبلاغ عادةً يكون عن الأصدقاء، وهي خدمة يقدمها الصديق لصديقه لكي يتخلص من الحياة!

قالت البنت وهي تبكي: وهل الحياة سيئة إلى هذا الحد عند الحمير التقدميين؟

قلت: إذا قلنا سيئة فنحن نكذب، وإذا قلنا شاقة فنحن لا نقول الحقيقة؛ فالسوء والمشقة مستوى من الحياة له شكل وله حدود، أما الحياة عند التقدميين الحمير فليس لها مثيل، ولا يوجد وصف يليق بها في كل القواميس.

قالت البنت وقد بدأت تلطم؛ كما النساء في العصر الحميري القديم: هل تشْبه الحياة عند الحمير التقدميين الحياة عند شاوشيسكو مثلًا؟

قلت: فين الحياة عند شاوشيسكو والحياة عند الحمير التقدميين؟ عند شاوشيسكو هناك حدود وهناك خطوط، هناك أعداء وهناك أصدقاء، هناك أنصار وهناك مناهضون، ولكن الحمار في ظل التقدميين العرب لا يعرف رأسه من رجليه، إذا عارض فهو هالك، وإذا أيَّد فهو هالك، وإذا قنع بالصف الخلفي فهو هالك، وإذا تقدم إلى الصف الأول فهو هالك، إذا هتف بسقوط الزعيم فهو هالك، وإذا هتف بحياة الزعيم فهو هالك، هو هالك في أي وضعٍ وعلى كل حال؛ ولذلك ستجدين في القسم التقدمي من العصر الحميري ابتسامات على شفاه الحمير وفي القلوب غصة، وستجدين العلاقات بين الجميع مقطوعة، والسهرات ممنوعة، ليس بأمر من أحد ولكنها ممنوعة بفعل الناس، وحتى لا يقوِّلك أحد ما لم تقله، ويستنطقك أحد ما لم تنطق به. وبعض أحزاب الحمير التقدمية قتلت من أعضائها أضعاف ما قتلت من أعدائها، وبعض الحمير التقدميين نبشوا القبور ومارسوا التعذيب على جثث المعارضين، ثم ألقوا بها بعد التعذيب في البحر؛ بدعوى أن جثث «الخونة» لا تستحق الدفن في تراب الوطن.

قالت البنت وقد بدأت تأكل في هدومها كالمجنونة: وماذا فعل هؤلاء الخونة؟ هل أرشدوا الأعداء عن أبواب المدينة السرية؟ هل قادوهم داخل المدينة؟

قلت: بل فعلوا ما هو أخطر من ذلك.

قالت: وهل هناك ما هو أخطر من ذلك؟

قلت: نعم ... في العصر الحميري هناك ما هو أخطر من ذلك؛ لقد عارضوا أفكار الزعيم، وبعضهم سخر من الكتاب الذي قام بتأليفه.

قالت البنت: وهل الزعيم مؤلف أيضًا؟

قلت: في العصر الحميري إياه، عندما تصبح زعيمًا فكل شيء ممكن وكل شيء يجوز.

قالت البنت: ليس هذا سؤالي، ولكني أسأل، هل كان الزعيم يعمل بالتأليف قبل الزعامة؟

قلت: لا، هذه حالة طارئة جاءت بعد الزعامة.

قالت: التأليف ليس حالة ولكنه صناعة، لها صُناع وخبراء يعرفون أسرارها ككل صناعة في العالم، فكيف أصبح الزعيم مؤلفًا بعد الزعامة؟

قلت: في الحقيقة يا خواجاية، في العصر الحميري، عندما يصبح الأخ القائد أو الأخ العظيم أو الأخ الكبير أو الأخ الرئيس زعيمًا، يصبح هو الأول في كل شيء، هو المهندس

الأول، وهو المعلم الأول، وهو الفلاح الأول، وهو المفكر الأول، وهو العسكري الأول، وهو المؤلف الأول، وكتابه سيكون أوسع الكتب توزيعًا، ليس في العالم الحميري فقط ولكن في العالم كله، وسيُترجم إلى كل لغات العالم حتى لغة هندوراس ولغة كوستاريكا، ونهار «أبوه» أزرق كل مواطن لا يقرأ الكتاب ويحفظه، وسيُرزق من وراء هذا الكتاب ويحفظه عشرات «المؤلفين» الأرزقية؛ الذين سيدبجون الصفحات عن أثر كتاب الزعيم في ثورات جنوب أفريقيا، وعن صدى الكتاب في حركات التحرير بأمريكا الجنوبية.

قالت البنت وهي تشهق: معنى ذلك أن سكان هذه البلاد قرءوا الكتاب وحفظوه!

قلت: بل إنهم لم يسمعوا حتى باسمه. صحيح أن ملايين النسخ وصلت إلى هناك، ولكنها بقيت في الحفظ والصون داخل سفارة الزعيم، وهذه السفارات نفسها هي التي ستكتب التقارير للزعيم بأن نُسخ الكتاب نفدت كلها، والناس تقف في طوابير، ولا طوابير الجمعية الاستهلاكية، تنتظر الطبعات الجديدة لكي تقرأ ثم تثور ثورةً على نهج ثورة الزعيم.

قالت البنت الأروبة: ولكن أليس هناك احتمال ولو ضئيلًا أن يصل إلى هذه السفارات مفتشون فيجدوا نسخ الكتاب مكدسة داخل الحجرات؟

قلت: إنهم لن يجدوا نسخةً واحدة على الإطلاق؛ لأن السفارات المدربة بعد أن يرسلوا التقارير للزعيم، يسارعون إلى بيع النسخ بالأقة، وهكذا يكسبون مرتين على قفا الكتاب، مرة يكسبون رضاء الزعيم التقدمي وعطاياه، ومرة يكسبون ثمن بيع الكتاب بالأقة، ويكسبون فوق ذلك تأييد باعة اللب والفول السوداني في أنحاء العالم!

ولدينا زعماء تقدميون آخرون ليس لهم كتب ولكن لهم أحزاب، وإذا سألت عن أهداف الحزب سيقولون لك: الوحدة النضالية الاجتهادية الفورية وغير الفورية؛ من أجل الصعود والنهوض والطرود أيضًا، وسيطلبون منك شد الحزام على البطن؛ بينما قادة الحزب التقدمي الوحدوي الاشتراكي يأكلون الكافيار في الصباح، والديوك الرومي في الغداء، والبط البكيني في المساء.

قالت البنت وكأنها اكتشفت سرًّا: عرفت الآن لماذا تدعو هذه الأحزاب إلى الاشتراكية.

قلت أسألها: ليه؟

قالت: لأن زعماء الحزب يتناولون أطعمة اشتراكية؛ فالكافيار، كما تعلم، من الاتحاد السوفيتي ... والبط البكيني من الصين الشعبية!

قلت للبنت والغيظ يمزق كبدي: لن تفهمي العصر الحميري ولو أنفقتِ العمر في دراسته.

قالت البنت: ليه؟

قلت: لأن هذه الأحزاب ليست اشتراكية، ولكنها مشتراكية، وهي مشتراكية لأن كل أعضائها مشتركون في دفتر التليفون، ومشتركون في النوادي الرياضية، ومع كل منهم اشتراك في وسائل المواصلات! وهذه الأحزاب في الحقيقة أحزاب مشتراكية، ولكنهم يسمونها اشتراكية من باب الدلع والهزار.

قالت البنت وهي تصرخ: خيبة الله عليكم حمير بحق وحقيق! اشتراكيتكم إذن ليست كما نعرفها «من كل مواطن حسب قدرته، ولكلٍّ حسب حاجته».

قلت: اشتراكيتنا عكس ذلك على طول الخط؛ فهي «لكلٍّ حسب قدرته، ومن كلٍّ حسب نفوذه والظهر الذي يسنده»، وفي العصر الحميري مثل يقول: «يا بخت من كان النقيب خاله»، فما بالك بمن كان الزعيم خاله أو عمه أو صهره أو من ريحة الريحة. تصوَّري يا خواجاية هناك أبناء عم أنفقوا مليارات على القعدة والمزاج، وأبناء عم أنفقوا مليارات للحصول على معلومات.

قالت البنت: أما الذين أنفقوا الفلوس للحصول على المعلومات، فهؤلاء لا يمكن أن يكونوا من العصر الحميري؛ لأن الحصول على المعلومات هي آخر صيحة في هذا العصر، وبدون المعلومات لا يمكن لدولة أن تنهض أو تنمو وتستمر، فالمعلومات هي الأساس في السلم وفي الحرب، والدولة التي تملك معلومات أكثر هي التي لديها فرصة أكبر للنجاة.

قلت وأنا أكاد أخبط رأسي في الحائط: مستحيل أن تصبحي حمارة في أي يوم من الأيام؛ فالمعلومات التي لديكم ليست هي المعلومات التي لدينا.

قالت البنت الفرنساوية: المعلومات هي المعلومات في أي مكان وزمان.

قلت: ولكن العصر الحميري ليس في المكان أو الزمان؛ إنه يعيش في الهيلولة المطلقة، ويَسْبح في اللانهائي المتفشنخ، وابن العم التقدمي المشتراكي، بعد أن أنفق المليارات، وطاف بالمعمورة وبالمخروبة أيضًا، وتذوق كل أنواع البيض الأمارة والسُّمر السمارة، وبعد أن غنَّى: سوَّاح وماشي في البلاد سوَّاح، والخطوة بيني وبين حبيبي براح، وبعد كل الذي حصل والذي وصل عاد بمعلومات من النوع الحميري الممتاز؛ على رأس المعلومات أن عدد المؤمنين بأفكار الزعيم التي وردت في كتابه بلغ ٥ مليارات و٦٠٠ مليون و١٤٢ ألف نسمة.

قالت البنت وهي تكركر: وكيف أحصاهم هذا المضروب؟

قلت: جاء في تقرير الحمار إياه أن الحصر تم على طريقة حصر المساجين في السجون، وأنه اضطر من أجل ذلك إلى الطواف في الكرة الأرضية من حارة إلى شارع، ومن شارع

إلى زقاق، ومن زقاق إلى ميدان، ومن ميدان إلى قرية، ومن قرية إلى كَفْر، ومن كفر إلى نجع، ومن نجع إلى مضارب، ومن مضارب إلى واحة، ومن واحة إلى غابة، ومن غابة إلى نزلة، ومن نزلة إلى دحديرة، ومن دحديرة إلى لاشيء! واضطر من أجل ذلك إلى استخدام كل أنواع المواصلات؛ طيارات وصواريخ ودبابات وسيارات وموتوسيكلات وجمال وحمير وأتوبيسات وأفيال؛ ولذلك طلب بدل سفر وبدل مواصلات مائة مليون دولار، وحصل عليها ... كل دولار ينطح دولار.

قالت البنت وهي تشد شعر رأسها: وهل هذه كل المعلومات التي حصل عليها؟

قلت: لا ... بالطبع، ولكنه حصل على معلومات أخرى بالتأكيد.

قالت: مثل ماذا؟

قلت: جاء في تقريره أنه بعد أن لف الكون، وعرف أحوال قبائل الزولو وقبائل الهون، اكتشف، بفضل الله، أن الأرض كروية! وأن الدنيا مقسمة قسمين، وعندما تكون الشمس ساطعة على قسم، يكون الظلام مخيمًا على القسم الآخر، وأكد أيضًا أنه اكتشف، بعد بذل الجهود وإنفاق النقود، أن الدنيا حظوظ ومزاجات، وأن الشمس تطلع كل يوم وتغيب!

قالت البنت الفرنساوية: يا له من عبقري، اكتشف ما لم يكتشفه أحد من قبل، ولم يقدر على اكتشافه أي جهاز من جهاز المخابرات في الشرق أو في الغرب، وهو عندما اكتشف أن الشمس تطلع كل يوم، وضع أصبعه على حقيقة كانت غائبة عنا، ثم أحدث انفجارًا خطيرًا عندما ختم اكتشافه بأن ذلك ينتهي دائمًا بالمغيب، فهي تطلع صحيح ولكنها تغيب، ولكنها لا تغيب إلا لكي تطلع، ولا تطلع إلا لكي تغيب. إن هذا العبقري هو وجودي في الحقيقة؛ لأنه اكتشف نظرية جديدة هي ... أنا أطلع إذن أنا أغيب!

قلت: وتسمِّين هذه نظرية!

قالت: نظرية ونص، وهو ليس فيلسوفًا فقط، ولكنه ثوري ومناضل وعظيم، إنه أراد أن يؤكد لزعيمه أن كل شيء يقوم ليسقط، ويعيش ليموت، وينشأ ليزول؛ فالشمس تطلع كل يوم ... وتغيب، ولكنها بعد أن تغيب تعود، وبعد العودة تغيب، فهي تغيب لتعود، وتعود لتغيب؛ وهكذا دواليك.

قلت: يا خواجاية، قد يكون وراء هذا الكلام فلسفة، وقد يكون في باطنه علم يخفى على الكثيرين، ولكن هذا الاكتشاف الرهيب ليس بفضل الأخ الحمار إياه، ولكنه اكتشاف قديم مضى عليه أكثر من ربع قرن من الزمان، وأول من اكتشفه للحقيقة والتاريخ هي

خضرة الشريفة تلميذة زكريا الحجاوي، فهي أول من لعلع صوتها بأغنيتها الشهيرة: «والشمس تسطع كل يوم وتغيب، والبطن تحمل كل عام وتجيب ... صعبان علي.»

هتفت البنت الفرنساوية: يا سلام! هذا معنى أعمق وعبارة أرشق، من هي خضرة الشريفة وأستاذها زكريا الحجاوي؟ وأين أراضيهما الآن؟

قلت للبنت الفرنساوية وقد هدني وغصني السغب ... هذه قصة أخرى، فإلى الغد يا فرنساوية، وأسأل الله أن يهدِّك ويقطم وسطك ... آمين يا رب العالمين.

١/٩/١٩٩٠م

٣٠٠ مليون زلمة!

قالت البنت الفرنساوية وقد استيقظت من النجمة: احكِ لي أيها الحمار الصغير عن خضرة الشريفة وزكريا الحجاوي، هل هما من الأنتيكة في بلادكم؟ هل هما نوع من الأطلال والآثار؟

قلت: يا خواجاية، عمك زكريا الحجاوي كان على هيئة بشر، ولكنه في الحقيقة كان مصنعًا لإنتاج الصياعة، كان يحب الأرض لأنه عليها وُلد، وعليها مات، وعليها يُبعث إن شاء الله يوم القيامة، وكان يحب البشر، كل البشر، باعتبارهم أخوة أشقاء من صلب آدم، وبصرف النظر عن اللغة والدين واللون، وكان يحب الشجر ويحب الحجر، ويبلبط في الطين، ويتمرغ في التراب، ويستنشق في سرورٍ عرقَ الناس وروث البهائم.

كان يحب الطبيعة، أما خضرة الشريفة فهي فنانة مسرحها الحواري والشوارع، وهي تغني كلامًا يحتقره المثقفون إياهم؛ باعتباره من كلام السوقة والدهماء والعامة، وهي لا تفهم ما تقوله، ولكنها بالرغم من ذلك تقول بإحساس، شعور غريزي لديها؛ لأنها تغني مأساة الناس ومأساتها، وتلطم على الخدين في مأتم الإنسانية ومأتمها.

قالت البنت الفرنساوية: وهل لا يزال عمك زكريا وخالتك خضرة يعيشان في العصر الحميري؟

قلت: عمك زكريا مات يرحمه الله، وخالتك خضرة لا تزال تسرح في الموالد والأسواق، ولكن يمكنك اعتبار هذا الصنف من البشر أنتيكة في العصر الحميري، فالعصر تغير والحمير أيضًا. في زمن عمك زكريا الحجاوي، كان صنف الحمير طيبين، كان كل حمار يرضى بما قسم له الله، عود برسيم وحفنة شعير، وكان كل حمار يراعي خاطر جيرانه الحمير؛ إذا مات حمار في الشارع، ارتدى كل الحمير السواد، وأعلن كل الحمير الحداد، وإذا تزوج حمار في قرية، رقص كل الحمير وسهروا وغنوا وأكلوا وحمدوا الله على ذلك.

الآن تغير العصر يا خواجاية، وتغير الحمير أيضًا، وستجدين في أنحاء العصر الحميري حمارًا ميتًا في شقة وحمارًا آخر يتزوج في الشقة المقابلة، اختلطت أحزان الحمير بأفراحها، وضاعت المعالم، وزالت الحدود. وفي العصر الحميري أجزاء تشبع حتى البطر، وأجزاء تجوع حتى الكفر، وستعثرين على حمار يقتل حمارًا آخر من أجل كبشة دولارات! وهناك حمار ينفق الملايين في ليلة على موائد القمار، وحمار يبحث عن عشائه في الزبالة، حمار ينام في قصر ولا قصر التيه، ومائة حمار مكدَّسة في حجرة تحت السلم. انتهى العصر الحميري الطيب، وبزغت شمس العصر الحميري القبيح، وأصبحت الحياة مصالح ومطامح، وصار الحمار الابن يقتل الحمار الأب للاستيلاء على الشقة، والحمار الحفيد يمزق جسم الحمارة الجدة للحصول على غويشة ذهب تحتفظ بها من أيام المجد القديم. الدولار هو سيد الموقف الآن، والحمير تبيع كل شيء من أجله.

قالت البنت الخواجاية: ولكنك لم تقل جديدًا، فنحن أيضًا في أوروبا نعيش في نفس الحالة ونعاني منها.

قلت: عيبك يا خواجاية أنك دائمًا تخلطين بين العصر الحميري وأوروبا.

قالت: وما الفرق؟

قلت: في أوروبا بشر، ولدينا حمير، وأنتم تعيشون في العصر النووي، ونحن نعيش في العصر الحميري، ومثل هذه العلاقات إذا ساءت عندكم، فلها ما يبررها، أما عندنا فليس لها مبرر على الإطلاق. وبعض فلاسفة أوروبا قالوا إن السلوك هو نتيجة علاقات الإنتاج في المجتمع، ونحن في العصر الحميري لا نزال نعيش في العصر الزراعي، ونحن نزرع الجعضيض والسريس والبرسيم والكنتالوب أيضًا، وصناعتنا هي علب كبريت مشط وحصير ملون وقلل قناوي، لم تتغير وسائل الإنتاج، ولكن تغيرت علاقات الحمير بعضها ببعض.

قالت البنت الخواجاية: أفهم من ذلك أنكم تأخرتم في وسائل الإنتاج، تقدمتم في سوء العلاقات.

قلت: بالضبط.

قالت البنت الفرنساوية: ولكن هذه معجزة.

قلت: أما عن المعجزات في العصر الحميري فحدِّثي ولا حرج؛ حياتنا نفسها معجزة، واستمرارنا في الحياة معجزة، وسلوكنا وتصرفاتنا كلها معجزات في معجزات، تصوَّري يا خواجاية أن لدينا حزبًا سياسيًّا اسمه حزب البعث الحميري، وهو قام على أساس

بعث أمَّة الخير لتعود كما كانت أمة من البغال، قوية الاحتمال شديدة الصبر، واستطاع الحزب أن يسطو على الحكم في بلدين من بلاد الحمير، ولكنه في التجربة أثبت أنه ليس حزبًا للبعث ولكنه حزب للبأس؛ فالمسائل عنده بالعافية، تخلص من حلفائه بالعافية، ثم تخلص من أنصاره بالعافية، وتفنَّن في اختيار أنواع من العافية لم تخطر لأحد من قبل على بال، أصناف وألوان من العذاب تجعل من المرحوم هتلر مجرد هاوٍ مثل أسامة عرابي، وتجعل من حزب البعث مارادونا التعذيب، تصوري يا خواجاية، إذا وقع حمار في أيديهم نشروا عظامه بالمنشار، وإذا اعتدى أحدهم على الحزب بالقول أو الإشارة، فهو مقتول لا محالة، وقد تقولين ومالُه! واحد أخطأ وقتلوه، وأنا أيضًا موافق وليس لدي اعتراض، فكل مخطئ عليه أن يتحمل حتى ولو كان العقاب لا يتناسب مع الجريمة، ولكن ما رأيك يا خواجاية أن المخطئ لا يموت وحده، ولكنهم يقتلون معه الابن الرضيع والزوجة المريضة والجد الكسيح، وتدفع العائلة كلها ثمن خطأ ارتكبه فرد منهم، حتى البيت يصبح أثرًا بعد عين، حتى قبورهم مجهولة، ومن يستدل عليها يلقى حتفه على الفور، وأثبتت التجربة أيضًا أن حزب البعث تحوَّل في الحكم إلى حزب البحث؛ فكل مواطن مخبر، وكل عضو في الحزب شريط تسجيل، وكما تحول الحزب إلى حزب للبأس وحزب للبحث، تحول أيضًا إلى حزب للبخس، تصوَّري يا خواجاية أن عضو الحزب يرتقي فيصبح وزيرًا أو وكيلًا أو مديرًا، ولكن فجأة بقدرة قادر يتحول إلى غفير مراحيض، وإلى كنَّاس شوارع، وإلى مفتش مراجيح.

قالت البنت الفرنساوية وقد أرعشت حاجبها: ولماذا كل هذه الحكاوي أيها الحمار الصغير عن هذا الذي اسمه حزب البعث؛ الذي انقلب إلى حزب للبأس، ثم تغير إلى حزب للبحث، ثم صار حزبًا للبخس؟ ما علاقة هذا كله بالعصر الحميري الذي كنا نتحدث فيه؟

قلت: عيبك يا خواجاية أنك طالبة علم ومتعجلة؛ لأن طلب العلم يحتاج إلى صبر ولا صبر أيوب، ويحتاج إلى جلَد ولا جلد نلسون مانديلا.

قالت البنت الخواجاية وقد صاحت وناحت: الصبر في الشدائد ميزة، ولكن في الكلام الفارغ مسْخرة.

قلت: حتى في الكلام الفارغ الصبر مطلوب وصاحبه مُثاب، ألم تسمعي عن شفيق جلال؟ إنه مطرب في عصرنا، وهو لا يصبر فقط ولكنه يطلب من الصبر أن يصبر ويعلِّم الصبر أن يصبر.

قالت البنت الخواجاية: طيب! صبرنا، فماذا بعد؟

قلت: حديثي عن حزب البعث سببه أن حزب البعث الحميري هو علامة على عصرنا، وهو قام في البداية لتوحيد الحمير فمزَّقهم، وقام لبعثهم بغالًا أشداء صابرين، فتحولوا على يديه إلى حمير مجروحة ومبطوحة، سارحين في البراري؛ كل حمار وحده، وكل حمار يغني على بلواه. وهو في النهاية ارتكب جريمة العصر، فاجتاح شوية حمير غلابة وشردهم واعتدى عليهم، ولم تكن هذه هي جريمته الوحيدة، ولكن جريمته الكبرى أن هذا الحادث كشف القناع عن وجوه الحمير كلها فبانت على حقيقتها؛ الحمار التونسي وقف من المأساة عين في المخلاة وعين في الغدير، والحمار السوداني توصل إلى مبادرة تتيح قبض المعلوم وتناول المقسوم، والحمار الفلسطيني ضاع في الكازوزة، وصار كالمنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، والحمار المصري سلبوه تحويشة العمر وشلحوا متاعه عند الحدود، وضربوه على قفاه عند الجوازات، ويواجه الحمير اليوم موقفًا صعبًا لم يواجهوا مثله من قبل، والسبب في المأساة هو حزب البعث الحميري؛ الذي تحول إلى حزب للبأس وانقلب إلى حزب للبحث ثم صار حزبًا للبخس.

قالت البنت الفرنساوية: حتى على فرض أن ما تقوله هو الصح، فما علاقة هذا كله برحلتنا في ربوع العصر الحميري؛ نشاهد ونتفرج، ونلاحظ ونستفيد، ونخرج في النهاية ببحث تاريخي مفيد عن العصر الحميري وما جرى له وما جرى عليه؟

قلت: ولكن كيف الذهاب الآن وقد تقطعت السكك وتمزقت السبل، وأصبح التجوال في بلاد الحمير كالمشي على حبل مشدود، فالدبابات تسُدُّ الأفق، وطائرات الشبح تحجب الشمس، وصواريخ عين القط مشرعة كأسياف تنادي على عاصي الهوى: الله أكبر! وحاملات الطائرات تملأ البحر، ومدافعها مسلطة ومسددة على كل أنواع الحمير.

قالت البنت الفرنساوية وهي تضرب صدرها بيدها: تصبح كارثة لو قامت الحرب وتم إبادة جميع أصناف الحمير، وتصبح مصيبة لو انتهى العصر الحميري قبل أن نبحثه وندرسه.

قلت للخواجاية: لا تخافي ولا تحزني؛ عمر الحمير طويل وسرهم باتع، وقد تحدث معجزة في آخر لحظة؛ فتعود الأمور إلى ما كانت عليه آخر ألاجة وآخر هنجفة.

قالت: كيف؟

قلت: ربما يسقط حزب البعث فيرتاح منه الحمير البعثيون أولًا، وهؤلاء في الحقيقة مثل راكب الأسد يخيف به الناس وهو أكثر الناس خوفًا، وإذا كان حزب البعث قد قتل من الأعداء ألفًا، فقد قتل من الأنصار مليونًا.

قالت: وإذا لم يسقط حزب البعث؟

قلت: في هذه الحالة سيسقط صنف الحمير جميعًا، فلن نعثر في العصر الحميري إلا على فلول، وفي هذه الحالة لن يكون عمك زكريا الحجاوي وحده في المتحف، ولكن سيكون معه كثيرون، وسيلحق صنف الحمير بصنف الهنود الحمر، وسنحتاج عندئذ لخالتك خضرة الشريفة؛ لكي نسرح بها في أرجاء الكون لتندب العصر الحميري الذي مضى وانقضى، وسنحتاج عندئذ إلى مؤلف عبقري؛ لكي يضع كلمات موَّال يليق بالمناسبة.

قالت البنت الفرنساوية وقد سرحت وهامت: ألا يوجد في العصر الحميري مؤلفون من هذا المستوى؟

قلت: الآن أشك بعد أن مات مرسي جميل عزيز ومات عبد الفتاح مصطفى ومات فتحي قورة وسكت عمنا مأمون الشناوي، أشك الآن في وجود مؤلف في العصر الحميري يستطيع أن يكتب مثل هذا الموال، والحق أقول يا خواجاية، أنه كان لدينا في الماضي كثيرون من هذا النوع، أحدهم تنبأ بالطوفان الذي حدث أخيرًا، وقضى عمره كله يوصي الحمير ويعظهم ويرشدهم ويعلمهم، ولكن لا حياة لمن تنادي، وبالعكس، وانقلب الحمير ضده وسجنوه وطاردوه وطردوه وقطعوا عيشه وأذلُّوه وجردوه حتى من جنسية الحمير، وبالرغم من ذلك ظل مقيمًا على حبه لهم، وظل يرشدهم ويعظهم ويتمنى أن يراهم بغالًا أو أحصنة حتى آخر يوم من حياته.

قالت البنت الفرنساوية: وهل تنبأ فعلًا بما حدث لهم اليوم؟

قلت: تقريبًا.

قالت: وماذا قال؟

قلت: قال:

يا شرق فيك جو منور والعقل ضلام
وفيك حرارة يا خسارة وبرود أجسام
وتلتميت مليون زلمة لكن أغنام
لا بالمسيح عرفوا مقامهم ولا بالإسلام
وفيك بهايم تتكلم وتقول يا سلام

شهقت البنت الفرنساوية وقالت: يا سلام! هذا شاعر حميري من الطراز الأول، ووصْفك لما يجري على أرض الحمير الآن يجعلني أتمسك بالسفر إلى هناك قبل أن تقوم القيامة، لا بد أن تبحث لنا عن طريقة الآن لكي نذهب إلى العصر الحميري ونتجول فيه؛ لأن الفرصة إذا فاتت فلن يكون هناك أي معنى لحياتي، وسأنتحر على الفور، خذني إلى

العصر الحميري أرجوك! أتوسل إليك! قبل أن يندثر ويصبح تاريخًا، وحتى أكون شاهدة عليه وعلى العصر.

قلت: اهمدي الآن ونامي، وغدًا نبحث عن وسيلة، فغدًا يوم آخر.

١ / ١٠ / ١٩٩٠م

المجنون ... وليلاه

استيقظت البنت الفرنساوية من النجمة، وهزتني ولكزتني، ثم سحبتني من الفراش، وقالت: انهض عليك اللعنة، لا بد من اللحاق بالعصر الحميري قبل أن يلحقه الفناء، فلو أنه قُضي عليه، فسأقتل نفسي على الفور، وستكون أنت المسئول عن كل الأضرار التي ستصيب بنتًا مثلي، طموحة وجذابة، وفي انتظار ابن الحلال.

قلت للبنت الفرنساوية وأنا أتساءل: ومن قال لك إن العصر الحميري سينتهي؟

قالت: أنت ... ألم تقل لي إن الحرب ستقوم وإذا قامت الحرب فستقضي على صنف الحمير، ولن يكون لهم أثر على ظهر الأرض؟

قلت: على كل حال الحرب لم تنشب بعد، وحتى إذا نشبت الحرب فلن تقضي على صنف الحمير؛ فالحمير كثير وإنتاجهم وفير، وهم لا يتوالدون، ولكنهم ينقسمون؛ ولذلك هدِّئي من روعك وحطِّي في بطنك بطيخة صيفي، وكوني على ثقة من أننا سنحصل على حمير في كل زمان، فنحن رغم ضعفنا وخيبتنا وهواننا على الناس، إلا أننا إنتاج متميز، فنحن من تقاوي فريدة ليس لها نظير.

قالت: أفهم من ذلك أنك لا تريد أن تأخذني إلى العصر الحميري!

قلت: بالعكس، بل أنا شديد الرغبة في الذهاب بك إلى هناك، ولكن في عصرنا الحميري كل شيء بأوان، وكل أمر مرهون بزمن، وما هو مكتوب على الجبين لازم تراه العين، وتجري جري الوحوش وغير رزقك ما تحوش، وما دام مكتوبًا على جبينكِ أنك ستشاهدين العصر الحميري، وتقضين فترة مع صنف الحمير، فأنت بإذن واحد أحد ومن غير مقاطعة، سيكون لك حظ مشاهدة العصر الحميري.

قالت: ولكن هذه اتكالية وانهزامية وتراخٍ من جانبكم واعتماد على المجهول.

قلت: ميزتنا في العصر الحميري أننا نعتمد على المجهول وعلى المعلوم أيضًا، وستجدين في العصر الحميري علماء ذرة، وستجدين في الوقت نفسه مجاذيب يتصلون بِالْجان، ويعرفون الأخبار من خلال اتصالهم بالعفاريت.

قالت: إذن ليس لديكم أدباء ولا حركة تنوير، ولا شعراء يستلهمون الوحي من الطبيعة، ولا فلاسفة يقلِّبون الأمر على كل الوجوه، ثم يخرجون في النهاية بسؤال.

قلت: بل لدينا حركة تنوير سبقت حركة التنوير في أوروبا؛ في يوم كان عندنا الفراهيدي وابن الهيثم وابن بطوطة وابن خلدون، وكان لدينا المتنبي وأبو العلاء المعري، وكان لدينا الحلاج وبشار بن برد الذي ضربوه بالسياط حتى مات، ثم ألقوا بجثته في نهر دجلة، وكان لدينا المتمرد أبو نواس، الذي خاف من بطش مباحث الخليفة فادَّعى العربدة والجنون، مع أنه كان ثائرًا قبل أن يعرف الناس الثورة، وكان لدينا أئمة حاربوا الظلم ووقفوا ضد بطش السلطان؛ الإمام الشافعي الذي مد رجله في مواجهة الوالي؛ لأنه لا يمد يده، والإمام أبو حنيفة الذي يتنازل عن حريته حتى لا يتنازل عن عقيدته. وبعد عصر التنوير دخل الحمير في نفقٍ مظلم، ثم جاء عليهم عصرٌ آخر أشرقت فيه شمس المعرفة، وجاء رفاعة رافع الطهطاوي والجبرتي والشيخ العطار وشهبندر التجار المحروقي وشيخ الثوار البصير سليمان الجوسقي، وأحمد القرداتي الذي كان يسرح بقرد في حواري القاهرة، والذي كان همزة الوصل بين ثوارها ضد جيش نابليون، ثم جاء علي مبارك والشيخ البشري ومحمد بك البابلي، والشاعر شوقي والشاعر حافظ والمعمم لطفي المنفلوطي وعلي محمود طه الفنان، والدكاترة زكي مبارك صديق ليلى المريضة بالعراق، والضاحك الساخر إبراهيم عبد القادر المازني، وصاحب العين المقفولة والعقل المفتوح الدكتور طه حسين، وأبو الأدب توفيق الحكيم، وصاحب نوبل عمنا الكبير نجيب محفوظ.

قالت البنت الفرنساوية مندهشة ومنتفشة: تقول لديكم في العصر الحميري أديب حصل على جائزة نوبل!

قلت: نعم، وحصل عليها بجدارة واقتدار، وهو في فقه الرواية، وباعتراف الكل، أعظم من شتاينبك، وفي المنولوج الداخلي أقدر من جيمس جويس، وفي السرد أحرف من تنسي وليامز، وهو بالنسبة لألبرتو مورافيا خطوة إلى الأمام.

قالت البنت الفرنساوية: وكيف استطاع كاتب من العصر الحميري أن يصل إلى هذا المقام؟

قلت: هذا سرنا في العصر الحميري ومأساتنا أيضًا، لقد كان لدينا منذ وقت قريب ناقدٌ لو ظهر في أمريكا أو فرنسا، لأقيمت له في الشوارع تماثيل، ولكنه عاش عندنا ومات

مطاردًا ومذعورًا، إلا في فترات قليلة في حياته، ومر في حياتنا مرور السياح، ولم يستطع رغم عبقريته وذكائه معرفة ما يدور بالضبط في الشارع الذي يقع خلف منزله، ومات لويس عوض مجهولًا من أغلب الناس، بينما المجد والفلوس والشهرة كانت من نصيب سليم عبد الجبار.

قالت البنت الفرنساوية: ومن هو سليم عبد الجبار؟

قلت: إنه عضو في شيء اسمه اتحاد الكُتاب؛ وهو اتحاد يضم عددًا من الكُتاب أضعاف عدد العائدين من العراق والكويت، وبعضهم ينشر اسمه ويكتب تحت اسمه «عضو اتحاد الكتاب»، وبعضهم يضيف إليها عنوان سكنه، وأحيانًا رقم تليفونه، وأحيانًا استعداده لتوصيل القصص والمقالات للمنازل بالمجان، وستجدين في كل تاريخنا مفارقات غريبة. الفلوس ستكون من نصيب هؤلاء، والفقر من نصيب الموهوبين، وسيتصدر هؤلاء المراكز والمناصب، وسيُحرم أصحاب الفنون وأصحاب العقول، وسيكسب علي برعي عشرة أضعاف ما ربحه نعمان عاشور، وسيعيش علي عويس أفضل مائة مرة من يوسف إدريس، وسيسقط كاتب مثل فيليب جلاب من الإجهاد؛ لكي يدفع أجرة المسكن وثمن الطعام والهندام، وسيشيخ لطفي الخولي قبل الأوان، وسيسكت عمنا أحمد بهاء الدين عن الكلام؛ بينما سيظهر بالتليفزيون كلَّ مساء من لا يجيد القراءة ولا الكتابة، ولا يعرف الفرق بين الألف وعمود النور، ولن يقع بصرك على صلاح حافظ في أي مكان؛ بينما ستقابلين على كل مأدبة، أو في كل حفلة، أصحابَ الأصوات الغليظة والأقلام الغبية، أدعياء الثقافة، محترفي الفشور، خريجي مدرسة روايات الجيب ومجلة المختار.

لقد كان لدينا يا خواجاية في يوم من الأيام؛ عبقري لم تلد النساء مثله، عبقري يدعى سيد درويش، بدأ حياته عامل بناء، ثم احترف قراءة القرآن، واشتغل بالتلحين والغناء، ولم يكن للحمير ثروة موسيقية من قبله، وكل ثروتهم الموسيقية التي حصلوا عليها من بعده؛ حصلوا عليها من فضله، ومع ذلك تركوه يموت في شرخ الشباب؛ بينما استطاع نصاب موسيقي اسمه الدكتور جوزيف فوقي أن يحصل من الإذاعة على نصف مليون؛ ثمنًا لموسيقاه، مع أن الكل كان يعلم أنه كان يؤلف الموسيقى على سلالم الإذاعة، وكان يقوم بتسميعها للمؤدين داخل استوديو التسجيل وهو ينقر بأصابعه على ترابيزة المذيع.

وكان لدينا هرمان؛ أحدهما يُدعى أم كلثوم، والآخر يدعى عبد الوهاب، الأولى كانت مطربة لم تخلق السماء حنجرة في جمال حنجرتها، ولم تفتل الأقدار حبالًا صوتية من نوع حبالها. أما عبد الوهاب فقد تربَّع على العرش أغلب فترات القرن العشرين، ومع ذلك عندما ماتت كوكب الشرق قُدرت ثروتها بأربعة ملايين جنيه حميري، وكل خمسة جنيهات

من النوع الحميري تساوي جنيهًا من النوع الإسترليني، كما أن ثروة عبد الوهاب لا تتعدى هذه الحدود.

في المقابل، كان هناك فنان خارج العصر الحميري يُدعى الفيس بريسلي، مات في الأربعين من عمره، وخلَّف وراءه ثروة تقدر بثلاثة عشر ألف مليون دولار، مع أن ثروة العصر الحميري تفوق كل الثروات.

وفي العصر الحميري، كان لدينا قارئ صوته نغمة من نغمات السماء، عاش ومات في حي البغالة، كان يحضر مآتم الفقراء قبل الأثرياء، وعندما مات الشيخ محمد رفعت لم يكن في بيته إلا حفنة من الجنيهات؛ بينما يوجد الآن قارئ اسمه البشير عنتر لا يعرف أصول القراءة ولا يجيد فن التلاوة، ومع ذلك فهو لا يقرأ إلا إذا تناول أربعة أكياس؛ كل كيس فيه ألف محبوب، أما عشاؤه فلا بد أن يكون وزة محمرة وفطيرة مشلتتة وبرام رز معمر بالحمام.

قالت البنت الفرنساوية منزعجة: ولكن كيف يمكنه القراءة بعد ابتلاع كل هذه الكمية من الطعام؟

قلت: إنه لا يقرأ إلا بعد ابتلاعها، كما أن عشاءه لن يكون مقصورًا على الوزة المحمرة والفطيرة المشلتتة والأرز المعمر بالحمام، ولكن لا بد من وجود حلة البالوظة، ثم البطيخة الشلين في الصيف، ثم قفص البرتقال في الشتاء، ثم يشرب دستة كازوزة من نوع الاسباتس؛ لكي يتكرع ويطرد الغازات، وهو الآن صاحب عمارة على النيل، وعمارة في المهندسين، وعمارة في مدينة نصر، وعمارة على كورنيش الإسكندرية؛ بالإضافة إلى عدد من الشاليهات في المعمورة والعجمي ومارينا وشاطئ أبو التلات؛ بينما عمنا الشيخ رفعت عاش ومات في بيته المتواضع في شارع البغالة على مقربة من السيدة زينب وسيدي علي زين العابدين؛ جلبًا للبركة وهدوء البال.

قالت البنت الفرنساوية وقد سرحت وشطحت: عرفت الآن لماذا الحرب حتمية في بلادكم.

قلت: ليه؟

قالت: لإصلاح الخلل الذي يهدد جهدكم ويدفع بالذيول إلى المقدمة، ويجرجر الرءوس إلى الخلف.

قلت: واهمة أنت وعبيطة يا خواجاية! قلت لك ألف مرة إن مقاييس بلادكم لا تصلح للتطبيق في العصر الحميري، والحروب ستعود بنا أكثر إلى الوراء، وستجعل من الذيول أئمة ومن الأئمة مجرد كومبارس.

قالت: لا، غير معقول.

قلت: معقول ونص، فبعد حرب ١٩٤٨م التي ظهرت فيه الأسلحة الفاسدة، وانكشف فيها المجتمع الحميري، فإذا به مليء بالثقوب والثغرات، وكان لا بد حسب نظريتك أن تتولى الحرب تغييره إلى الأفضل، ولكن التغيير حدث إلى الأسوأ؛ قام أول انقلاب عسكري في العصر الحميري في مكان يقال له دمشق من ضواحي العصر الحميري، وقضى الانقلاب العسكري على الديمقراطية الهزيلة التي كانت هناك.

وعرف العصر الحميري بعد الحرب نموذج الجنرالات الذين يظهرون بوفرة في جمهورية الدومونيكان وجمهورية شركة الموز في جواتيمالا، وجمهورية شركة القنال في بنما، وجمهورية شركة التليفونات في السان سلفادور. ثم جاءت حرب ١٩٥٦م وثبت من خلالها أن القيادة العسكرية غير مؤهلة وليست على مستوى المسئولية، وبدلًا من تغييرها ثبَّتوها في أماكنها وأعطوها كل السلطات. ثم كانت الخيبة الكبرى في حرب ١٩٦٧م، وانهزمت جيوش العصر الحميري كلها أمام جيش المرتزقة والصياع، ولعلها كانت الحرب الوحيدة التي حصل خير من بعدها؛ غيَّروا القيادة ودفعوا إلى الصفوف الأمامية أصحاب المواهب وأصحاب الكفاءة؛ ولذلك كان الأداء رائعًا في حرب أكتوبر، ولكن المعجزة التي صنعها العسكريون بدَّدها السياسيون، وعدنا خلفًا در من جديد؛ انقسم المجتمع إلى قسمين بحجة الانفتاح والانبطاح؛ قسم الذين عبروا، وقسم الذين هبروا.

أما الذين عبروا، فقد بذلوا الدم، وأما الذين هبروا، فقد جمعوا ما تيسر من الأموال بالرغم من عدم رؤية أحد منهم على المعابر وقت الحرب، أما الذين عبروا فقد تاهوا في الزحمة واختفوا في الظلام. وأصبح للعصر الحميري أبطال من نوع جديد؛ البطل توفيق عبد الحي الذي كان بطلًا في التايكوندو، وصاحب الرقم القياسي في بيع الفراخ الفاسدة والسمك المعفن، ووسيلته في ذلك شركة اسمها أراك، لا أراك الله مكروهًا في عزيز لديك. والبطل رشاد عثمان الذي أوصاه الوالي بأن يأخذ باله من إسكندرية، فأخذ باله في أسنانه وهات يا استيلاء على أراضي، وهات يا هبر في فلوس، وكله في سبيل التنمية الشعبية. والبطل الحاج عصمت السادات، صاحب الكرامات والحيازات والشقق والموتيلات، الذي استولى على الشنابر المسحوبة على البارد والشنابر المسحوبة على الساخن، وهات يا بيع في السوق السوداء. والبطل الحاج محمد لطفي المليونير الثري، الذي برَّر تضخُّم ثروته بأنه عمل في ليبيا لمدة عام وبمرتب قدره مائة دينار في الشهر! ولذلك يا خواجاية إذا قامت الحرب، فسيدخل العصر الحميري بالتأكيد في متاهات جديدة، وستسوء أحوال الجميع

أكثر، وقد يعودون من جديد إلى الصحراء والخيام، وصيد البر والبحر، وغزوات القبائل، والفخر بالأصول والأنساب.

قالت: يا لها من عيشة حلوة! وأتمنى لو عشتها معهم إذا عادت تلك الأيام.

قلت: الصحراء هي سخرية الطبيعة من الأقدار، وفي الصحراء لا مكان للخديعة أو الكذب أو الزيف أو البهتان؛ فكل شيء مكشوف وواضح وعلى عينك يا تاجر، لا يستطيع أحد في الصحراء أن يدعي الثراء؛ لأنه لا توجد في الصحراء بنوك، مالك على جسمك أو داخل بيت الشعر، أو سارح في حالك داخل الصحراء، وفي الصحراء لا يستطيع أحد أن يدعي الشجاعة؛ لأن الصحراء واسعة ومكشوفة، وسيراك الجميع لحظة نشوب المعركة إذا أخذت ذيلك وهربت كالفار الجربان، الصحراء هي الصدق وهي الشرف وهي أسمى مراحل الحياة.

هكذا كانت الصحراء في عصرنا الأول، وأخشى الآن إذا عدنا إلى الصحراء، أن نعود بكذبنا وغشِّنا وخداعنا وقيمنا البالية التي تهرأت من كثرة الاستعمال، وأخشى أن نعود إليها ومعنا أبطالنا الجدد؛ توفيق عبد الحي، ورشاد عثمان، وعصمت السادات، ومحمد لطفي.

قالت: وماله! على الأقل يبنون بيوتًا، ويفتحون منافذ لبيع اللحم الفاسد والسمك المعفن، ويقيمون في الصحراء سوقًا سوداء!

قلت: في هذه الحالة سأتركك تذهبين لوحدك إلى العصر الحميري الجديد، أما أنا فبريء منهم إلى يوم الدين.

قالت البنت الفرنساوية: لا وألف لا، رجلك على رجلي، وقدمك قبل قدمي، ورحلتنا ستكون معًا، وقد نصبح يومًا ما مثل المجنون وليلاه.

قلت: انخمدي ونامي فورًا أيتها الخواجاية، فأنا ألمح في عينيك الآن أنك ستصبحين حمارة في وقت قريب إن شاء الله.

١ / ١١ / ١٩٩٠م

كوز المحبة انخرم ...!

قالت البنت الخواجاية وقد تنعكش شعرها وتبعزق بعضها: أخبرني يا حماري الصغير، كيف تقضون وقتكم الآن وأنتم في فترة الانتظار؟

قلت: أي انتظار؟

قالت: انتظار الحرب، ألم تقل لي إنكم في انتظار الحرب التي إذا نشبت قد تعود بكم القهقرى ألف عام إلى الوراء.

قلت: لا شيء، نحن فقط ننتظر.

قالت: أعرف أنكم تنتظرون، ولكني أسأل كيف تقضون وقتكم في فترة الانتظار، هل لديكم موسيقى مثلًا؟

قلت: الموسيقى عندنا على قفا من يشيل؛ من الطبل البلدي إلى أوركسترا القاهرة السيمفوني.

قالت: ولكن هل تستمعون إليها؟

قلت: نستمع إليها أحيانًا؛ خصوصًا إذا كان يصاحبها غناء.

قالت: وأي نوع من الغناء عندكم؟

قلت: عندنا يا ست هانم غناء على كل لون، عندنا غناء شعبي لزوم أفراح الفقراء وللترفيه عن رواد الأسواق، وقليل يحمل حكمة الشعب الحميري وفلسفته، وكثير غثٌّ ومضروب، ويقدس القيم العالية والعلاقات غير الصحية بين الناس.

والمصيبة أن هذا اللون من الغناء هو الذي فرض نفسه في النهاية، والسبب هو التكنولوجيا.

قالت البنت الخواجاية: كيف؟

قلت: بعد اختراع الراديو كاسيت أصبح الغناء في متناول الجميع، عشرة من الحمير يحصلون على نص قرش حشيش، وعدة كاستات من النوع المضروب، ويسهرون سهرة تمتد حتى الفجر؛ ولذلك ظهر في الآونة الأخيرة مئات المطربين والمطربات، ونشأت أيضًا عشرات الشركات لتعبئة هذه الكاستات، وأصبح لدينا مشاهير من عينة سيد فكري والبحر أبو جريشة والريس بيرة وأم إمام السنجلفية؛ نسبة إلى كفر سنجلف من أعمال مركز الباجور.

قالت البنت الفرنساوية: وهل يتغنون بالحب مثل مادونا؟

قلت: بالرغم من شهرتهم وانتشارهم، إلا أن أحدًا من المستمعين لم يستطع أن يتبين حتى الآن بماذا يتغنون، أو لماذا يغنون؛ فكلامهم بالرغم من أنه هابط فهو أيضًا غامض، لا يعرف له أحد رأسًا من رجلين؛ مثلًا كوز المحبة انخرم، اديله بُنطة لحام، وغزالة شاردة، عاوزة اللي يصطادها، وخد الحبيب قشِّف، ادهنله زيت حار، ومين الأستوك ده؟ اللي ماشي يتك ده.

قالت: ومن الذي يؤلف هذا الكلام؟

قلت: لا أحد يدري، فيكفي الآن اسم المغني، والشرط الوحيد أن يكون متمتعًا بجاعورة من النوع الممتاز.

قالت البنت الفرنساوية: ربما هي موجة جديدة وحركة تغريب مقصودة، هدفها الاحتجاج على ما في المجتمع من انحراف واعوجاج.

قلت: في الحقيقة يا خواجاية، هي حركة تجريد للمعاني وتجريح للذوق، وهي هوجة مثل هوجة الموالد؛ كما أنها نكسة ووكسة وانحطاط وانحدار، وهي، للأسف الشديد، جاءت بعد موجة سبقتها كان الغناء الشعبي فيها يحكي قصص غرام شريفة وعفيفة؛ حسن ونعيمة، وسعد وإنصاف، وأحمد ووجيدة، وكان المغني الشعبي يغني للوطن في أفراحه وفي أتراحه أيضًا؛ غنى السابقون لثورة ١٩ ولثورة يوليو، وساهموا في تعبئة الناس في حرب ٤٨ وفي حرب ٥٦ ... والنار ولا العار ولا استعمار في بلدنا و... الله يخلي الجيش وعساكره منصورين، قال يا واد يا عليش خدلك خمس فدادين، طول عمري لابس خيش ما كنت يوم جالعه، ما كنت لاجي العيش والقمح أنا زارعه.

قالت البنت الفرنساوية: ولكن هذا لون من الغناء تحريضي، وظهر مثله إبان الثورة الفرنسية.

قلت: فلتطلقي عليه أي وصف، ولكنه كان غناءً له معنى وله هدف، وكان المغني من دول يبحث عن كلام معقول لأنه لا يستطيع أن يواجه جمهوره في الشارع بكلام من

الذي يقال هذه الأيام؛ من نوع: يا مجمع المساطيل يا ليل ... و... قالوا الحشيش لألأ، إن كان حلال آدي احنا شربناه، وان كان حرام آدي احنا حرقناه، لازمتها إيه قولة آه ولأ.

قالت البنت الفرنساوية: وهل هذه هي كل الأغاني التي عندكم؟

قلت للبنت الفرنساوية: الأغاني عندنا على قفا من يشيل؛ لدينا أغاني من نوع لولاكي، ومن نوع دنا، وبعض المطربين الآن يغنون بالرومي وبالهندي وبالجريجي، ولدينا مطرب انتحل اسم مطرب هندي؛ لذلك سئم الناس الغناء إلى درجة أن مطربة الشباب في هذه المرحلة رحلت عن دنيانا منذ خمسة عشر عامًا، أما مطرب اللحظة فقد مات منذ ثلاثة عشر عامًا، أما مطرب جميع الأجيال فأطْرَبها حتى سِن التسعين.

قالت: ولكن لماذا ترفض هذه الموجة الجديدة من أغاني الشباب؟

قلت: أنا لا أرفض شيئًا ولكن هم الذين يرفضون، تصوري مطرب شباب يغني لجيله ... جيل ١٩٩٠م، فيغني نفس المعاني التي كان يتغنى بها المطربون في جيل ١٩٠٠م: يا حبيبي يللي راح، يا حبيبي ياللي ضاع، يا حبيبي يللي العوازل سلطوه عليه، يا رايح وانا قاعد استناك، يا تقيل وانا مدلوق عليك، يا مصهين وأنا سهران أناجيك ... يا مين يجيبلي حبيبي، إن حد شاف حبيبي سلمولي عليه، ساكن قصادي وبحِبُّه، جت واحدة تانية لهفته مني، يا خرابي على بختي المنيل، وادي قسمتي ونصيبي، وفلاح كان ماشي بيهرش من جنب السور ... معانٍ وكلمات كانت تصلح أيام الحبرة واليشمك والعربة الحنطور والمشربيات التي تحجب الجمال عن عيون الفضوليين، ولكن الكلمات نفسها ما زلنا نستعملها في زمن أصبح فيه الحب على المكشوف. البنات في الشارع أكثر من الأولاد، وفي التعليم أشطر من الصبيان، وفي الوظائف عِد على قد ما تقدر.

في القاهرة وحدها ألوف من البنات يسكنَّ وحدهن، وفي بيروت يوجد ضعفهن، وفي الدار البيضاء نادرًا ما تجدين بنتًا تعيش مع أهلها بعد سن الستاشر، وفي تونس أغلب البنات هاجرن إلى لندن وباريس، ومع ذلك نتناول الحب في الأغاني بنفس الطريقة التي كنا نتناولها بها عندما كانت غاية الحب أن يختلس نظرة إلى الحبيبة؛ وهي واقفة خلف المشربية، أو نازلة تدلع تملا القلل، وعندما كانت وسائل الاتصال بين المحبِّين معدومة، فلا أجهزة تليفون ولا أجهزة فاكس، وكانت أقصى أمنية للحبيب أن يهرش في شعر راسه وهو فايت على بيت الحبايب، فتدرك الحبيبة أنه يرسل إليها بالتحية والسلام.

أعرف واحدًا من الحمير سافر إلى أوروبا حديثًا، ووقف في النافذة في عاصمة أوروبية كبرى؛ يحملق ويبحلق في بنت خواجاية تقف في نافذة أمامه، ووقع صاحبنا في الحب من أول نظرة، وأراد أن يُعلِمها بحبه، هرش في شعر رأسه، فلما لم ترد السلام بالهرش

في رأسها، راح يهرش عمَّال على بطَّال حتى اقتلع بعض شعر رأسه، وبعد أسبوع من البحلقة والهرش، التقى بالبنت على رصيف الشارع، فحدق فيها وراح يهرش ففتحت البنت شنطتها وأخرجت زجاجة دواء وقالت له: خد هذه الزجاجة؛ ففيها دواء يقضي على كل الحشرات التي في شعر رأسك؛ لأن الهرش في الرأس ليس من أدوات الحب في بلادكم، ولكنه في بلدنا أول درجة من درجات الحب.

قالت البنت الفرنساوية: أليس لديكم شعراء؛ يبتكرون المعاني ويحلقون على أجنحة الخيال؟

قلت: كان لدينا من هذا النوع كثيرون، كان أمير الشعراء أحمد شوقي يؤلف الأغاني ويحتضن المواهب الشابة من المطربين، وكان الشاعر أحمد رامي يبتكر المعاني ويخترع المواقف ويحلق على أجنحة الخيال إلى النجوم، وكان علي محمود طه يربط الحب بالحضارة القديمة، وكان محمود إسماعيل يجد صلة بين الغرام والنيل، وكان الشاعر أحمد فتحي يغني للحب على طريقة روميو وجوليت، وجاء بعد هؤلاء الشعراء عشرات من مؤلفي الأغاني، كان لديهم إحساس وعندهم ذوق، وخلفهم ثقافة شاملة وتجربة عريضة؛ مرسي جميل عزيز ومأمون الشناوي ويا أمَّه القمر ع الباب، و... آدي الربيع عاد من تاني. اختفى هذا الصنف الآن، وأصبح مؤلف الأغاني لا يفكر ولا يحس، يؤلف الأغنية وهو في الكافتيريا، وأحيانًا وهو في السيارة، وغالبًا وهو في بوفيه الإذاعة، لم يعد لديهم وقت ينفقونه في التفكير أو في اصطياد المعاني، وأغلبهم لم يقرأ ديوان شعر في حياته، وهؤلاء يتصورون أن المعري كان فقيرًا لا يجد ما يستر جسده، وأن المتنبي كان عرَّافًا يفتح المندل ويوشوش الودع؛ ولذلك لدينا في العصر الحميري ظاهرة لا أعتقد أنها موجودة، في مكان آخر على ظهر الأرض.

تصوري ... لدينا يا خواجاية أغنية عمرها ألف وخمسمائة عام، كتبها شاعر مقاتل قضى نصف عمره على ظهر الحصان؛ أغنية تقول:

ولقد ذكرتك والسيوف نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم.

قالت: أغنية عمرها ألف وخمسمائة عام وتستمعون إليها في الوقت الحاضر؟

قلت: وسنستمع إليها في المستقبل أيضًا.

ولدينا أغنية عمرها ألف عام، انتشرت انتشار الوباء في حقبة السبعينيات؛ الأغنية تقول:

لما أناخوا قبيل الصبح عيسَهمُ وحملوها وسارت بالهوى الإبل
يا حادي العيس عرج كي أودِّعهم يا حادي العيس في ترحالك الأجل

لدينا أغنية ثالثة عمرها ألف ومائتا عام؛ الأغنية تقول:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة يا جارتا لو تعلمين بحالي
مَعاذ الهوى ما ذُقْت طارقة النوى ولا نزلت منك الهمومُ ببال

والناس تستمع لها وتطرب، ربما لم يفهموا المعنى على وجه التحديد، ربما غمضت بعض الكلمات عليهم، ولكنهم شعروا بإحساسهم الدفين أنها أغان راقية، وتحمل زخمًا من المعاني السامية، فهذا الفتى المحارب كان يُدعى عنترة، وكانت له حبيبة اسمها عبلة، والمعنى الذي جاء في شعره لم يصل إليه أحد من قبله، ولم يرتفع إليه أحد من بعده:

ولقد ذكرتك والسيوف نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

تصوري يا خواجاية وهو في عز المعركة وفي أتون المعمعة تذكر حبيبته؛ بينما السيوف تنهش في لحمه وتصطبغ بلون دمه. ما الذي فعله الشاعر وهو في هذا الكرب العظيم؟ لا شيء سوى أنه تمنى لو أنه طبع قُبلة على السيف الذي ينهش لحمه، لأنه يلمع لمعانَ فم حبيبته التي كانت تمتع بأسنان كاللؤلؤ وفم كخاتم سليمان، وبعد أن مات الشاعر ومضى عليه ألف وخمسمائة عام في التراب، جاء شاعر عابث اسمه حسين شفيق المصري، فأراد أن يسخر من الشاعر القديم فقال:

ولقد ذكرتك والحمار معاكس فوق الشريط وقد أتى الوابور!

وفي الحقيقة يا خواجاية، الشاعر العابث لم يكن يسخر من الشاعر القديم، لكنه كان يضيف إليه؛ فالموقف الذي اختاره ولم يتذكر شيئًا فيه إلا حبيبته؛ كان أصعب مائة مرة من الموقف الذي وجد الشاعر القديم نفسه فيه؛ فالشاعر القديم بطل وشجاع، قلبه

كالحديد، والحرب عنده متعة والقتال هواية، ولم يدخل معركة في حياته إلا انتصر فيها، ولم يصارع أحدًا إلا قتله، وهو في المعركة كأنه في حوض سباحة أو في كازينو على شاطئ النيل.

أما الشاعر الحديث فهو فلاح قفل يركب حمارته العرجا، ويحاول أن يعبُر بها شريط السكة الحديد، ولكن الحمارة تعثرت وانحشرت حوافرها في الشريط؛ بينما الوابور قادم يطلق صفيرًا وينفث دخانًا ويحمل معه الموت الأكيد، وبالرغم من ذلك تذكَّر الفلاح القفل حبيبته وهو مدرك تمامًا أنه هالك لا محالة، وأنه ضايع في الكازوزة بدون شك، حتى العابثون زمان كانوا يعبثون من خلال الفن، وكانت مواهبهم تساعدهم على ذلك.

أما مؤلفو هذه الأيام فلا فن ولا موهبة ولا وقت عندهم للعبث؛ لأنهم مشغولون طول الوقت، أحيانًا في الإذاعة لإمضاء عقد، وأحيانًا في مكتب بيع أغنية، وأحيانًا في بيت لتحفيظ مطربة لا تعرف القراءة ولا الكتابة.

أذكر أن ملحنًا شهيرًا أسمعني ذات يومٍ قصيدةً من تلحينه، كان المذهب يقول: مر بي، أومأ لي، وبعد أن استمعت إلى الأغنية كاملة، أسند العود على الحائط المجاور وسألني سؤالًا في غاية الغرابة والسذاجة: أومأ لي ... يعني ايه؟ وأجبته: أومأ لي ... يعني هات سيجارة، وضحكت وضحك هو الآخر. واندهشت؛ كيف يلحِّن كلامًا لا يفهم معناه؟ مع أن التلحين هو مزيد من التفسير للمعنى الذي يحمله الكلام أو يخفيه بين السطور، ولكن كل شيء في العصر الحميري جائز، وكل شيء ممكن، حتى تلحين الكلام الذي لا يفهم الملحن معناه.

وضربت البنت على صدرها وقالت: يخرب عقلك! لقد فهمت الآن من كلامك أنكم حمير صحيح، ولكن أصحاب حضارة، وكان لكم تاريخ من ألوف السنين، وعندكم أغانٍ عمرها ألف وخمسمائة عام ... مع أن الإنجليز لا يفهمون لغة أجدادهم التي كانوا يستعملونها منذ أربعمائة عام، وانت يا مضروب ما زلت تحفظ الأغاني القديمة؛ كأنك أنت الذي قمت بتأليفها الآن، لقد شوقتني لرؤية العصر الحميري، فمتى تذهب بي إلى هناك.

فقلت لها: نامي الآن، وغدًا يحلها ألف حلال.

قالت: وإذا لم يحلها؟

قلت لها: اتخمدي ونامي، وغدًا يأتي الفرج مع تباشير الصباح.

١/١٢/١٩٩٠م

الوعد والمكتوب ...!

استيقظت البنت الخواجاية مذعورة، وألقت نظرة على ساعة الحائط، ثم برطمت وتعزرنت وسبت الأخضرين، وتحولت فجأة إلى إعصار مدمر، وانطلقت الكلمات من فمها الرقيق كأنها دانات مدفع ميدان، وراحت تجمع ثيابها وتجمع متاعها، وارتدت فردة حذاء وبحثت عن الفردة الأخرى، فلما لم تجدها، شوَّحت ولوحت، وفتحت الباب وخرجت لا تلوي على شيء، على رأي الشيخ طاهر مدرس اللغة العربية، وخرجت وراءها بالشبشب والجلباب، ولحقت بها عند محطة الأتوبيس، وعكمتها من قفاها وجرجرتها على الإفريز، ولكنها عصلجت وصوتت، فالتف حولنا جمع غفير، من صبيٍّ صغير إلى امرأة عجوز دردبيس، ثم جاء العسكري عتريس، ومن قفايا عكمني، وعلى الأرض جرجرني، وبكمية من الشتائم أتحفني، فلما اعترضت على هذه المعاملة الحقيرة والإهانة الكبيرة، اندهش الشاويش لجرأتي، وكاد يجن من شدة وقاحتي، وقال ع القسم لا بد أن تذهب، ومحضرًا لا بد أن تعمل، وسجنًا لا بد أن تدخل، فلما أخرجت له البطاقة وعليها صورتي في منتهى الشياكة والأناقة، قال: طبعًا، هذا لبس نشالين، فلو أنك موظف حكومة، لخرجت من بيتك بالفانلة واللباس، أما ملبوسك إلى وظيفتك، فلن يزيد على شوال بدون أكمام، وفي قدمك مجرد مداس، ولو كنت صاحب دكان، لعانيت من وقف الحال، ولو كنت خريجًا، فأنت منتظر خطاب القوى العاملة، ولكن صورتك في البطاقة كشفت حالك، فأنت متقمش ومتمرمش، وبالطبع معك فلوس، وعندك غموس، وأنت نشال قراري، ولا بد لهفت محفظة الست الأمورة، ولا بد من سجنك لترتاح منك المعمورة، قال قوله هذا واستغفر الله وهبدني قلمًا على قفاي، وركبة في حشاي.

وعلى الفور انطلقت البنت الفرنساوية كالمدفع وهات يا تلطيش في الشاويش، واندهش الشاويش غاية الاندهاش، وحصل في عقله انهباش، وقال مزمجرًا: اضربه

علشانك وانتِ ولا على بالك، لا بد أنك زميلته، وفي الحرفة وكيلته، وأنت ولية سوابق، ونهار أبوك غامق، فلما أخرجت باسبورها وعرف هيئتها، انسحب على الفور وقال: عجايب! ظننته من صنف النشال، فإذا هما عاشقان، وفي حاجة إلى موَّال، وها هي البنت تبوسه، وتضع فلوسها على فلوسه، وفي الوقت نفسه ترمقني بعين بصَّاصة، تندب فيها رصاصة.

وانصرف الشاويش، وتفرق الناس، فعدنا إلى البيت، وأكلنا الفول بالزيت، وسألتها على الفطار: ما الذي حوَّلك من ملاك إلى عفريت.

قالت: لعنة الله عليك وعلى اليوم الذي شكلك فيه رأيت! ولد كذاب وأونطجي، وأنت خدعتني وجرجرتني، وبكلامك المهبول أقنعتني، ووعدتني بالذهاب لرؤية العصر الحميري، ولكنني معك منذ عام ولم أشاهد من الحمير إلا أنت، وبذلك صحت نظريتي، فأنت الحمار الوحيد، وما عدا ذلك فهو خطرفة وهلضمة. ومنذ عام وأنا ألف وراك، وأذهب معاك من هنا لهناك، وأنت تهرش مخي بأساطير وخرافات، وتلحس عقلي بحكاياتٍ وروايات.

عام كامل يا نصاب ضيعته من عمري، عام كامل! واستطاع جورباتشوف في زمن مثله أن يحول روسيا من دولة شيوعية إلى دولة رأسمالية، وتم خلاله بناء نفق تحت المانش يربط بريطانيا بأوروبا لأول مرة في تاريخ البشرية.

عام كامل، استقلَّت خلاله ناميبيا، وتطورت فيه قضية السود في جنوب أفريقيا، وسقط فيه حسين حبري مرتين وعاد إلى الحكم مرتين، وأنت تسرع بي بعيدًا إلى عالم حميري ليس له وجود، وإلى ناس حمير ليس لهم مثيل، والمصيبة أني صدقتك، وأنا معذورة على كل حال، فشكلك والحمار سواء، ولكن عقل الحمار أفضل، فهو على الأقل يعرف طريقه، وفي الشغل يفيد فريقه.

قلت للبنت الخواجاية: أما في شكلي والحمار سواء، فهذه حقيقة، ولكني لم أخدعك، بل أنت التي ورايا جريت، وعلشان تتشرفي بصحبتي بكيت، وأنا وعدتك بالذهاب إلى العصر الحميري، وسأذهب بكِ حسب وعدي لكِ، ولكنك يا خواجاية، لا تعرفين أن هناك فرقًا بين الوعد والمكتوب؛ فالوعد من فعل البشر، والمكتوب من صنع السماء العالية، نحن نعِد دون أن نعلم ما هو المكتوب، أحيانًا يتفق الوعد مع المكتوب، ولكن هذا يحدث أحيانًا ولمدة قصيرة، وصحيح أنا وعدتك يا خواجاية، ولكن الوعد غير المكتوب كما شرحت لك من قبل.

أما المكتوب يا خواجاية، فهو كما نراه الآن على الطبيعة؛ العصر الحميري اشتعلت فيه النار؛ البوارج تملأ البحر، ومدافع الميدان تمتد نحو الأفق، والطائرات الشبح تسد عين الشمس، وهناك لغط حول قنابل ميكروبية، وهناك شك حول قنابل ذرية، وإذا قامت الحرب، قد ينتهي العصر الحميري قبل أن تكتحل برؤيته عيناك الجميلة، يا ست البنات.

قالت البنت الخواجاية وهي تكاد تنفجر من شدة الغيظ: إذا انتهى العصر الحميري أو راح في ستين داهية، فلا لوم عليك ولا تثريب؛ لأن هذه ليست هي المشكلة؛ المشكلة يا حماري هي الوقت الذي أضعته، عام كامل وأنا ألف وأدور خلفك، عام من عمري ومن عمر الحياة يا مفتري، البني آدم يعيش على هذه الأرض ربما ستين عامًا إذا كان سعيد الحظ، وبعض الناس ماتوا في سن الأربعين، وكل الجنود ماتوا ما بين العشرين والثلاثين، وأنا أفقد من عمري عامًا كاملًا دون فائدة وبلا أي عائدة.

قلت: يا سبحان الله! طبعك حامي يا خواجاية وأمرك غريب؛ تبكين من أجل عام ضاع من حياتك؛ وفي بلاد الحمير يبددون القرون والدهور ولا نشعر بشيء! هل تسمعين عن جامع نفق شبرا؟ منذ الأربعينيات وناس بذقون تجمع من ركاب الترومواي والأتوبيس أموالًا لبناء جامع نفق شبرا؛ لا الجامع ظهر ولا التبرعات انقطعت، ومع ذلك لم يحتجَّ أحد ولم يعترض أحد.

وفي المغرب العربي مشروع مد خط سكة حديد من طنجة إلى الإسكندرية، وقد فكروا في المشروع منذ استقلال الجزائر عام ١٩٦٢م، وقد ألفوا لجنة لدراسة المشروع، ثم ألفوا لجنة ثانية لدراسة مشروع اللجنة الأولى، ثم ألفوا لجنة ثالثة للتفتيش على أعمال اللجنتين، ومنذ عام ١٩٦٢ وحتى عام ١٩٩٠م لا تزال اللجان تتألف، والمشاريع تُعاد، والميزانيات تدبَّر، ولكن بالنسبة لخط السكة الحديد لا حس ولا خبر، ومع ذلك لم يغضب أحد ولم يحتج أحد.

بعض الدول في بلاد الحمير وعدت شعوبها بضرب البيروقراطية، وإشاعة الديمقراطية، وتطبيق الديناميكية، وضرب الاستاتيكية، وبعضها وعد شعبه ببندقية لكل محارب، ودواء لكل مريض، ووظيفة لكل صايع، وبالطو لكل بردان، وعشوة لكل جوعان، ومعاش لكل فلسان، ومضت على هذه الوعود عشرات السنين، ازداد خلالها عدد المرضى وتضاعف عدد المفلسين، وصار البردانين والجوعانين هم حزب الأغلبية، وبالرغم من ذلك لم يغضب أحد ولم يحتج أحد.

وهذا الموقف، يا خواجاية، من الشعب الحميري ليس نتيجة يأس لا سمح الله، ولكن إيمانًا منا بأن الوعدَ غيرُ المكتوب، فالحكومات وعدت، ولكن المكتوب لا يتفق مع الوعد،

وأيضًا يا خواجاية ... لأن العجلة من الشيطان، وفي التأني السلامة، وفي العجلة الندامة، وتجري جري الوحوش، وغير رزقك لم تحوش، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، ولو عرفتم الغيب لاخترتم الواقع. وهذه الأقوال يا خواجاية قد لا تعجبك، ولكنها عصير حكمتنا من خلال تجربتنا الطويلة في الحياة.

وتصوري يا خواجاية، لو أن مشروع خط سكة حديد الشمال الأفريقي نفَّذوه على الفور، لكان عمره الآن ربع قرن، ترى كم من الأقدام كانت ستُفرم تحت العجلات؟ وكم من النفوس كانت أُزهقت بفعل الاصطدامات والانقلابات؟ وكم من المآسي كانت ستحُل بالبلاد والعباد؟ ولو أن الحكومات نفذت ما وعدت به، لحدث في بلاد الحمير ما لا يُحمد عقباه ... على رأي أمواج البورسعيدي؛ فالناس إذا جاعت هدأت، وإذا تعرَّت سكنت، وإذا صاعت انزوت، وإذا مرضت انطوت، أما إذا شبعت وارتوت وتلمضت فيا داهية دُقي؛ سيصبحون آخر افترى وآخر بجاحة، وقد يطالبون بالمزيد، وبعد الحصول على الديمقراطية قد يطالبون بالمشاركة، وقد يفترون أكثر فيطالبون بالمساواة في الحقوق والواجبات.

أعرف ثورة قامت في بلاد الحمير منذ عشرين عامًا، كان لديها في الخزانة فائض أموال يكفي لكي يعيش كل حمار في الأرض الحميرية في مستوى المواطن الإيطالي، ولكن الثورة إياها آثرت التريث، ووعدت الحمير بمستوى يفوق مستوى المواطن السويدي، وبعد مُضي عشرين عامًا على هذا الوعد، انحط مستوى الحمير الذين يعيشون في ظل الثورة إياها؛ حتى صاروا يحلمون بمستوى المواطن السويسي، وبدلًا من عمل لكل مواطن، وحققت الثورة هدفًا آخر؛ هو لجنة لكل مواطن ... واللجان في كل مكان؛ بينما الطعام ليس له وجود في أي مكان، ومع ذلك لم يغضب أحد ولم يحتج أحد؛ باعتبار أن كل شيء قسمة ونصيب، وما هو مكتوب على الجبين لازم تراه العين، وأقدارنا بيد السماء القاسية يا نهر البنفسج؛ على رأي عمنا زكريا الحجاوي يرحمه الله.

وعندنا يا خواجاية حزب اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي، والبعث معناه إعادة الحياة، ومع ذلك تسبب في قتل الأمة، ولم يضرب من صنف الناس إلا العرب، بدَّد شمل البعض وخرب مصالح الجميع، ومع أنه اشتراكي، إلا أنه بعد عشرين عامًا في السلطة باع القطاع العام وحل اتحاد العمال وقتل كل صاحب رأي، ومع ذلك لم يغضب أحد ولم يحتج أحد؛ على أساس: تهرب على فين يا عبد من المكتوب.

قالت البنت الخواجاية وهي تصرخ: ما لي أنا وهذا الكلام الفارغ! لقد وعدتني أنت بأن أذهب إلى العصر الحميري وأتفرج عليه، ولكنني أنفقت من عمري عامًا ولم نذهب

إلى أي مكان، ولم أتفرج على أي شيء، وأضعت من حياتي عامًا دون أن نحقق فيه شيئًا على الإطلاق.

قلت: ما أعبطك يا خواجاية! وما أشد سذاجة حضرتك! أنت منذ وضعت يدك في يدي وأنت تعيشين في العصر الحميري، وعليك أن تلتزمي بقواعده وأن تخضعي لقوانينه، وأنت تغضبين من أجل عام ضاع من حياتك، والعبد لله غادر أرض الحمير ذات مرة لمدة عشر سنوات، وودعت بعض الناس الذين كانوا جلوسًا على القهوة، وعندما عدت بعد عشر سنوات وجدتهم جلوسًا على القهوة في نفس الوضع والهيئة، ولم يندهش أحد منهم لرؤيتي، ولم يسألني أحد منهم أين كنت، وما دمت يا خواجاية أصبحت صديقتي، واخترت الحياة على طريقتي، فلا بد من اعتقاد ما نعتقده، وقبول ما نقبله، واحتمال ما نَحتمِله، وإلا إذا كنت ستعترضين على كل هايفة، وتلطمين في كل نايبة، وتفرَّجي علينا طوب الأرض علشان عام واحد مر من حياتك بدون فايدة أو عايدة؛ فسيكون هذا، يا بنت الفرطوس، فراقًا بيني وبينك.

وعلى الفور على الأرض البنت سقطت، وبدموعٍ غزيرة بكت، وعلى طراطيف صوابعي باست، وقالت أرجوك أتوسل إليك لا تطردني ولا تفارقني، لن أسألك في المستقبل عن أي شيء، ولن أُخْوِت دماغك بأي موضوع، سأعيش معك حميرية من جذور الحمير، وستجدني بعد فترة أتفوق على صنف الحمير، لا أسأل ولا أتشكك، لا أغضب ولا أحتج، وسأستمع إلى الوعد ولكني سأخضع للمكتوب.

قلت: خيرًا وبركة، حميرية تعيشين إن شاء الله، حميرية تموتين بفضل الله، حميرية تُبعثين مع صنف الحمير بإذن الله، أما إذا تبرمت أو شكوت أو صرخت أو لطمت، فليس عندي إلا البرطوشة على بوزك.

قالت: خدامتك وجاريتك يا حماري العزيز.

قلت: دعينا الآن من الكلام الفارغ وتعالي إلى الفراش.

يناير ١٩٩١م

خرساء اليمامة!

استيقظت البنت الفرنساوية من الفجرية وقالت: والآن ... وحتى يستجيب العراق لمطالب المجتمع الدولي، ويخرج من الكويت بسلام، ماذا تقترح يا سي السيد أن نفعل حتى تحين اللحظة الحاسمة، ونتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ قلت: سنفعل يا خواجاية كما يفعل الحمير في بلادنا؛ سنقضي الوقت في قزقزة اللب وطرقعة الصوابع، وفي تقليب صفحات الصحف، وفي النوم بعد الظهر، وفي الدردشة بعد العشاء حتى مطلع الفجر ثم النوم حتى العصر.

قالت البنت محتجة: أنت تفعل ذلك ... آه، ولكني أنا لا أفعل ذلك ولو انطبقت السموات على الأرض.

قلت للبنت الخواجاية في هدوء: أنتِ طبعًا لن تفعلي ذلك؛ فهذا السيناريو الذي عرضته عليك هو حق الرجال، أما صنف الحريم فلهن روتين آخر؛ سأقدمك لبعض السيدات الحميريات؛ لزوم قضاء الوقت معهن، والدردشة في أحوال الجيران، والنميمة في حق الأصدقاء والخلان، ثم قرطفة الملوخية وتقليب التقلية، وتخليل القوطة المجنونة، وقدح الزبدة المدهونة، وغسل الهدوم المركونة، ثم الاستحمام بالماء الساخن والصابون، ثم دعك الكعوب وطرد القشف المدموك، ثم النوم وانتظار السيد حتى يعود.

قالت البنت الفرنساوية: وهل تتصور أنني سأطبخ لك ملوخية وأقلب لك التقلية ثم أجلس أنتظر تشريفك لكي أقوم لك بدور شهر زاد؟ إذا كنت تعتقد ذلك، فهذا بعيد عن شنبك!

صرخت في وجه البنت الفرنساوية: لقد اتفقنا يا بنت الفرطوس على أنك حميرية تعيشين، حميرية تسلكين، وإلا فسيكون فراق بيني وبينك، وأنا رجل من بلاد الحمير، وأرغب في الحياة مع امرأة من نفس الماركة.

تراجعت البنت الفرنساوية وتنحنحت، ثم بكت ونهنهت، وقالت: لا تلجأ في كل مناسبة إلى سلاحك البتار، ولا تهددني بحرماني من العيش معك أيها الحمار، فأنا اخترت الحياة معك لهدف ... هو مشاهدة العصر الحميري، والحياة مع صنف الحمير، وسأحقق هدفي حتى ولو اضطرتني الظروف إلى الحياة معك أيها الحمار، والصبر على ما ابتلتني به الأقدار، حتى قرطفة الملوخية وتحبيشها بكل أنواع الأفاوية والبهار.

قلت: على خيرة الله، اتفقنا، وعلى بركة الله ننفذ الروتين الذي اتفقنا عليه، أنا في السلاملك وانتِ في الحرملك، أنا مع العُمد والأعيان وانتِ مع الهوانم والستات.

قالت البنت تتساءل: معنى ذلك أننا لن نلتقي أبدًا؟

قلت: بل سنلتقي بالتأكيد، وسيكون ذلك في السرير.

قالت البنت الفرنساوية وقد أرعشت حاجبها، وفي حركة تؤكد أن الكلام مش عاجبها: ومتى إذن نلتقي لنتناقش ونتفاهم ونرسم خريطة حياتنا معًا، ونراجع خطواتنا السابقة ونتفق على مسيرتنا المقبلة؟

قلت وأنا أتنحنح وأخبط بيدي على الترابيزة وأتبحبح: ولماذا كل هذا العناء؟ وما جدوى هذا الشقاء؟ إن اجتماعنا سيكون للمناغشة وليس للمناقشة، وماذا تجدي المناقشة مع مثلك؟ وكيف أناقش امرأة والنساء ناقصات عقل ودين؟ وكما قال سيدنا دهمان بن دحبور ... المرأة أولها نتن وآخرها نتن! وكما قال بمباز بن كعبور ... الشيطان امرأة، والجنة لا يدخلها شيطان!

ونحن في بلاد الحمير لا نناقش صنف الحمير ... ولا نستشيرهن، نحن نأمر فنُطاع، ونحكي فيستمعن، ونصمت فيشعلن النار لعمل الشاي والكركديه.

قالت البنت الفرنساوية: معنى ذلك أننا لن نخرج معًا نتمشى على شاطئ النهر ونتناول الإفطار معًا في الكافتيريا، أو نخلع وننزل نبلبط معًا في حمام سباحة؟

قلت للبنت الخواجاية: أمركِ عجيب، وسلوكك شغب، وحتى إذا اضطرتنا الظروف للمشي معًا، فلا بد أن يكون بيني وبينك فرسخ وقيل فرسخان، فالمرأة عورة والرجل الحمش لا يمشي جنبًا إلى جنب مع المعاور، ولكنه يمشي وحده وتمشي المعاور وحدها، لا يقتربان ولا يتكلمان.

قالت البنت الفرنساوية وقد فشخت بقها حتى بانت نواجذها: ولكن أليس هناك احتمال أن يتكلم غريب مع المعاور؟

أجبتها: افرضي أن هذا حدث، وأن الغريب للمعاور همس، فلا ضرر ولا ضرار، ما دمت لا أرى ولا أسمع ولا أدري بما يدور ورائي في الخفاء؛ فالعيب في بلاد الحمير

ليس العمل السيئ أو الفعل الشائن، ولكن العيب هو أن يُعرف أو يذاع أو يشاع بين العالمين. في بلادكم أيتها الخواجاية تصنعون كل شيء وأي شيء على البهلي وعلى عينك يا تاجر، وإذا اعتقدتم بأن هذا الشيء عيب، فإنكم لا تفعلونه، وإذا اقتنعتم بالشيء ولو كان عيبًا ارتكبتموه ولو في ميدان عام، وأما عندنا فنحن نصنع كل شيء في الخفاء، فإذا لم يصل إلى علم الناس، فهو حلال بَلال، أما إذا شاع وذاع وتهامس به الناس، فلا بد أن يُراق على جوانبه الدم، حتى يسْلَم ويصبح ويعود نقيًّا كما كان. .

قالت البنت مندهشة: إذن لا جناح على من يزور المعاور في خفية من العيون، ولا عتاب على المعاور إذا مالت هنا أو هناك في السر وبعيدًا عن النور.

قلت للبنت الخواجاية: الله يحب الستر، ومن ستر بني آدم ستره الله يوم القيامة.

قالت: افرض أنني رضيت بشروطك وقبلت الحياة بقيودك، ثم اشتقت إليك وقت جلوسك مع العُمد والأعيان، فكيف أراسلك؟ وأين ألقاك؟

قلت: هذا العمل مكروه، ومن يوافق عليه معتوه، وأنت في عالم وأنا في عالم، فإذا التقينا كان ذلك في الحرملك في وقت معلوم، أما أي اتصال غير ذلك، فهو سعي مذموم، وفعل محموم، ووقت معدوم.

قالت البنت الفرنساوية: أعرف من هذا أنه في بلد الحمير لا تجتمع الآتان والذكور.

قلت: عفارم عليكي يا بنت الفرطوس! لقد صرت حميرية ورب الكعبة، لقد نطقت كلمة آتان كما نطقها عمروش بن جحشان، والأتان هي أنثى الحمار، وهذا دليل على أنكِ على الدرب تزحفين، وحَذْو النعل بالنعل تمشين، أما جوابي عن سؤالك ... فلا تجتمع الآتان مع الذكور إلا ساعة المناجاة ولحظة الملاغية، فنحن في الحقيقة لا نعيش في مجتمع ولكننا نعيش في منفصل، كل جنس يعيش وحده؛ كالسجون ... عنبر للرجال وعنبر للحريم، التطلع من بعيد مباح، والبصبصة من الشبابيك تجوز، وتبادل الرسائل عبر النبتشية ماشي، ولكن الاختلاط ممنوع، والاجتماع حرام، حسب فتوى الشيخ تمباك بن زربون، ولذلك كل نُكتنا في العصر الحميري جنسية، وكل تفكيرنا في غرف النوم، وكل أعشابنا مقويات، وأكثر الكتب رواجًا في بلادنا هو إعادة الشيخ إلى صباه، وأغلب أغانينا تأوهات وشهقات وحركات لا تليق إلا خلف الأبواب المغلقة والستائر المسدلة.

وفي بلادنا يعشق الحمير صنف المرأة الأوروبية لأنها شخصية، وفي مجلس الرجال تتكلم، إذا دخلت مجتمعًا انحنت الشنبات والصلعات، وإذا أرادت الجلوس قدموا لها الكراسي وعليها الشلتات، وإذا وضعت السيجارة بين شفتيها، تقدموا إليها بالكبريت

والولاعات، وتراقص ألف رجل ولا كلمة انتقاد واحدة، وتقبِّل كل رجل يصافحها ولا كلمة عتاب واحدة من بعلها، وتخرج وقت أن تشاء، وتعود وقت أن تشاء، وتقابل في البيت وحدها من تشاء، وترتدي المايوه قطعتين وأحيانًا قطعة واحدة وأحيانًا نصف قطعة، وأحيانًا تنزل البحر زلط ملط، ولكن لا أحد ينظر ولا أحد يبحلق ولا أحد يهتم.

ولكن في بلاد الحمير إذا سارت في الطريق أتان مقشفة، طاردها أكثر من حمار، وغازلها أكثر من جحش، ولقبوها بالباشا، ووصفوها بالقمر، وتعقبوها حتى يحول بينهم وبينها عسكري الدورية أو بوليس النجدة أو ولاد حتتها، وتصبح عركة ولا عركة أبو زيد الهلالي، وهوجة ولا هوجة عرابي، وحرب ولا حرب البسوس.

ويجلس المستوظف عندنا في مكتبه وفكره شارد في امرأة رآها ذات مرة تنشر الغسيل في البلكونة، وأغلب الروميوهات تبعنا يؤلفون الشعر في جوليت شاهدوها مرةً واحدة في أتوبيس نمرة سبعة. أما نسوان الحمير فحدثني عنهن ولا حرج؛ الحمارة منهن تحب ابن الجيران، ممنوع تتزوج من تحب ... لا وألف لا، وتجلس في البيت تنتظر ابن الحلال، ويأتيها ابن الحلال، وفي أغلب الأحيان لا يعرفها ولا تعرفه، ويتزوجان وتبدأ المشاكل؛ مشاكل من كل صنف وعلى كل لون، وفي الغالب لا ينفصلان ولكنهما يعيشان مثل ناكر ونكير، بلا حب وبلا مودة، وأحيانًا وبلا حوار، وأحيانًا تقبع الحمارة في بيت الوالد، ولا ترى أحدًا ولا يراها أحد، ثم تقبَل الزواج من أول طارق على الباب ... وغالبًا ما يكون في سن جدها، ولكنها تشبثت به كما يتشبث الغريق بالقشة، ولكن بعد عام أو عامين تصبح الحمارة أرملة، وتقضي بقية العمر تنتقل من فراش إلى فراش، أحيانًا تحت يفطة الزواج وأحيانًا بدون!

قالت البنت الفرنساوية: وما لي أنا والتاريخ الأسود لصنف الحمير والحميرات؟

قلت لها: ما دمت أصبحت حميرية، فلا بد من الإحاطة بالتاريخ الحميري كله، حتى تهمدي وتنخمدي وتسكتي وتنكتمي، وإلا ... فليس لديَّ إلا البرطوشة وعلى نافوخ حضرتك.

قالت غاضبة: تضربني بالبرطوشة؟

قلت: وما هو أقل من ذلك لو توفرت، ولمعلوماتك يا خواجاية ضرب الزوج لزوجته مشروع، وهو وسيلة من وسائل التأديب والتهذيب، والمحاكم تقره وتوافق عليه؛ باعتبار أن الأدب فضَّلوه على العلم، ولأنه لا يضر صنف النسوان، وكما أكد الفيلسوف عمر الجيزاوي ... اكسر للبنت ضلع يطلعلها أربعة وعشرين.

قالت البنت الخواجاية: إلى هذا الحد تحتقرون صنف الحريم؟

قلت للخواجاية: المسألة لا علاقة لها بالاحترام والاحتقار، المسألة يا خواجاية أن بعض الحمير في منطقتنا يعيشون في القرن الخامس، أما الحمير المتطورون فيعيشون في القرن الثامن، وفي بلاد الحمير المتأخرين، يُعتبر وجه البنت عورة، وكعب رجلها عورة، وهي لا ترى زوجها إلا بعد حفلة الزفاف وفي غرفة النوم. أما قيادة السيارة بالنسبة للبنت فهي حرام، ومصير كل سوَّاقة إلى النار، ولأن صوتها عورة فهي تنكتم لا تتكلم مع أحد، وإن كلَّمها أحد لا ترد عليه، وحتى في الجامعة لا تتلقى العلم من أستاذ، ولكنها تتلقى العلم من جهاز تلفزيون، وحتى سائق السيارة يكلمها من قفاه، وهي لا ترد عليه بالكلام ولكن بالإشارة. مع أنه زمان كان يوجد لدينا امرأة في تاريخ الحمير اسمها زرقاء اليمامة، حمت أهلها وقومها من شرور الأعداء، حمت حدودها من الغزو.

زرقاء اليمامة هذه تحولت في هذا العصر إلى خرساء اليمامة، يحدث في بلاد الحمير المتطورة ... يحدث ما هو ألعن وما هو أسخم، بالرغم من أننا نعيش في القرن الثامن، إلا أن البنت عندنا تتعرى مثل البنت التي تعيش في القرن العشرين، ولكن دون تجربة ودون عقل، إذا مشت تقصعت كالزمبلك، وإذا وقفت اهتزت كالغصن العيان، وإذا كلمتها أشاحت، وإذا غازلتها نظرت إليك باشمئزاز وقالت يا سِم، وإذا تزوجت تريد أن تسيطر، وهي لا تحب ولكنها تريد أن تمتلك، وفي بلاد القرن العشرين، إذا ما رامت المرأة الغرام مع من تحب، شكرت وحمدت فضل بعلها.

وعندنا يتمنَّعن وهن الراغبات، ويُعرضن وهن المُقْبِلات، ويعذَّبن وهن المعذِّبات، مشكلات ولخبطات ولعبكات، وربك عالم بالحاجات والمحتجات.

قالت البنت الفرنساوية وقد سرحت وهجعت: وماذا بعد؟

قلت: لا شيء، تنتظرين في حمى سي السيد حتى السلام، وحسك عينك شباك لا تفتحي، غريب لا تكلمي، باب لا تخرجي، خضار لا تشتري، لحمة لا تقطعي، طلباتك مجابة وحاجتك واصلة لحد عندك، ومهمتك الوحيدة انتظار سي السيد حتى يعود آخر الليل بعد القعدة مع الصحاب والأحباب، وفي الصيف سأجلب لك البطيخ الشليان، والعنب البناتي، والمشمش اللي الهوى هزك يا مشمش، وفي الشتاء سأحمل معي عند العودة ورقة اللحمة وكيس الطرشي البلدي والبرتقال أبو سرة وبرطمان المفتقة لزوم الهلاضيم والتختخة، ولو استمرت الأحوال، ستصبحين كالمحمل ... وهِز يا وز، ويا أرض احفظي ما عليكي، وتصبحين مثل رفيعة هانم والعبد لله مثل السبع أفندي، وسيصيبك السكر وضغط الدم والنقرس، لكن كل داء وله دواء، وكل الأمراض دواؤها موجود عند الست عزيزة العمشة؛ حيث العمل جاهز ويمكن ربطه في ذيل قرموط أو دفنُه في تربة ميت.

قالت البنت صارخة: تربة ميت! وعمل! أي عمل هذا وأنا لا عمل لي إلا دراسة السلالات ومعرفة أصل الأجناس، وتخصصي في العصر الحميري بالذات!

قلت: ما حكيته لك الآن هو سر العصر الحميري ولغزه ومفتاحه وسحره ورونقه وعزه، وما دمت أصبحت الآن حميرية، فعليك الغوص في العصر الحميري حتى القاع.

قالت: من أجل العلم كل شيء يهون، وكل أمر مطاع.

قلت: اتفقنا ... تعالي الآن إلى الفراش، وغدًا يوم آخر!

فبراير ١٩٩١م

أولاد كاليوني!

قالت البنت الفرنساوية وقد نفخها الغيظ فصارت كالبطيخة الصيفي: حجتك سقطت أيها الحمار، وعاصفة الصحراء انتهت، وعمك بوش أعلن أمام العالم كله اندحار العدوان وانتهاء الحرب، ونستطيع الآن أن نذهب إلى العصر الحميري نتمشى ونتمشكح، نتجول ونتحول، نبشر وننكش، وبالتأكيد سنصل إلى جذور العصر الحميري، وسنعرف أصوله وفصوله، وسأصير عالمة يُشار إليها بالبنان، وسأحصل على الدكتوراه والبيلي باه، وستدخل التاريخ معي رغم أنفك؛ باعتبارك الحمار الذي ركبتُه وطفت به العصر الحميري، من أدناه إلى أقصاه.

قلت: نقبك على شونة أيتها البنت الفرنساوية، فزيارة العصر الحميري قبل الحرب كانت صعبة، وبعد الحرب أصبحت مستحيلة.

قالت البنت الفرنساوية وقد أرعشت حاجبها: ها أنت تحاول خداعي مرة أخرى، ولكني لن أسمح لك؛ فالحرب انتهت والمدافع سكتت، والسفر إلى هناك سيكون متعة مشروعة، وستكون زيارة وتجارة، سياحة وصياعة، إذا أردت أن تأتي معي كان بها، وإذا رفضت، أو تماحكت، أو تملعنت، ففي ستين داهية حضرتك، وأستطيع الاستعانة بأي حمار من الذين تعرفت عليهم من خلالك، ولا تنسَ أنني تعرفت على مائة حمار من أقاربك ومعارفك، وكلهم في الحمورية أكثر منك باعًا وأطول منك ذراعًا.

قلت لها: حذار أيتها الفرنساوية أن تفكري في مثل هذا الأمر! إذا أردت الذهاب إلى العصر الحميري، فاذهبي وحدك وطوِّفي وحدك، أما إذا حاولت الاتصال بأحد من أقربائي أو أحد أصدقائي فقسمًا عظمًا لا بد أن أكون بمطوة قرن غزال قاتلك، ومن شعرك على الأرض أجرجرك، حتى أغسل عاري، وأنقذ الشرف الحماري، فنحن يا بنت المديوبة

أبناء العصر الحميري الأُصلاء؛ الذين انحدروا من أصلاب حمير حصاوية وحمير مصرية وحمير يمانية، نحظر تمامًا اتصال زوجة حمار بحمير آخرين.

قالت البنت الفرنساوية وقد مطَّت شفايفها ودكت الأرض بكعبيها: عندما أبدأ الاتصال بالحمير الآخرين لن أكون زوجتك؛ سأكون قد حصلت على الطلاق، وسيكون من حقي أن أتصل بمن أشاء وفي الوقت الذي أريد.

قلت للبنت الفرنساوية وأنا أكتم الغيظ في قلبي: أسهل لك الصعود إلى الفضاء بدون صاروخ من الحصول على ورقة الطلاق، وعليك الآن أن تنصتي وتفهمي.

قالت البنت الفرنساوية وهي تشيح بوجهها: أنصت لإيه وأفهم ماذا؟! إنك لا تقول شيئًا يستحق الإنصات، ومن ينصت لك لا يفهم شيئًا.

قلت لها: اسمعي يا بنت الناس، فلنفترق في هدوء كما التقينا.

قالت البنت: عظيم، هذا أول كلام تقوله له معنى.

قلت لها: وبغض النظر عن سلاطة لسانك وسوء ملافظك، فأنا أريد أن أؤكد لك أن دخول العصر الحميري الآن صار مستحيلًا، صحيح أن الحرب انتهت، ولكن الفتنة ازدادت، والعصر الحميري انقسم بعد الحرب إلى قسمين؛ قسم ينتمي إلى عائلة أم المعارك؛ وهؤلاء هم الأشاوس والنشامى والصناديد ... والجزء الثاني ينتسب إلى عاصفة الصحراء ... وبين القسمين بحور وجبال وهضاب وتلال، وأنت يا بنت المديوبة فرنساوية وخواجاية، وجنسك من المشاركين في عاصفة الصحراء.

قطعت البنت الفرنساوية حديثي وقالت في استعلاء: هذا يسهِّل الأمر؛ فانتسابي لعاصفة الصحراء يجعلني موضع الترحيب والتكريم في نصف العصر الحميري، ويجعلني آخر مهابة واحترامًا في النصف الثاني.

قلت للفرنساوية: هذا تحليل خاطئ سيؤدي في النهاية إلى قرافة سانت تريزا؛ إذا وقعت في أيدي الأشاوس والنشامى فسيمزقون جسمك إربًا إربًا، وسيدقون عظامك قطعة قطعة، وسيشربون دمك نقطة نقطة؛ لأن هزيمة الأشاوس في أم المعارك ستجعلهم يحاولون تحقيق النصر في أخت المعارك أو بنت المعارك أو بنت خالة الست أم المعارك، وسيعتبرون هزيمتك هزيمة للإمبريالية والكمبرادورية والشواشي العليا للبرجوازية، وسيؤلفون الأغاني ابتهاجًا بالانتصار على حضرتك، وستغني أم الإذاعات ... الفرنساوية جاتلنا والنصر اتحقق لنا ... وسيعقد الفريق البشير مؤتمرًا صحفيًّا في الخرطوم يهنئ فيه الأشاوس على النصر في أخت المعارك، وستهدد موريتانيا بضرب باريس بالصواريخ إذا عاودت إرسال فرنساوية أخرى إلى أرض النشامى.

قالت البنت الفرنساوية: اطمئن، لن أذهب في جولتي في العصر الحميري إلى القسم الخاضع للأشاوس والنشامى، سأكتفي بزيارة القسم الآخر الذي ينتمي إلى عاصفة الصحراء.

قلت للبنت الفرنساوية: إن زيارتك للقسم الآخر لن تؤدي إلى أي خير، وقد تلقين مصيرًا أبشع من المصير الذي تتعرضين له في القسم التابع لأم المعارك.

قالت البنت الفرنساوية: هذا كلام مضحك؛ فكيف يكون مصيري بشعًا عند حمير عاصفة الصحراء تمامًا كمصيري عند حمير أم المعارك؟

قلت: أيتها البنت الفرنساوية، هذا شيء طبيعي ويتفق مع طبائع وسلوك الناس، سيتصور البعض منهم أنك حضرتِ للمنِّ عليهم بعد معروفك الكبير، وسيتصور كل منهم عندما تخاطبينه أنك تشمخين عليهم بأنفك، فإذا لثغتِ لهم لثغاتك الفرنسية ... قالوا تكلمنا من طرطوفة لسانها، وإذا ضحكتِ لهم، قالوا تسخر منا لضعفنا وهواننا على الناس ... إذا سألتهم أي شيء قالوا جاءت تقبض المعلوم نظير وقوفها إلى جانبنا ساعة الشدة.

قالت البنت وهي تشخط وتنطر: إلى هذا الحد أنتم معقدون؟

قلت: معقدون ... هذه كلمة بسيطة؛ فنحن في الحقيقة لا نعاني من عُقد نفسية كبقية خلق الله، ولكننا نعاني من غدد نفسية. ولدينا قصة في تاريخنا مضحكة للغاية؛ إذ يُحكى أن الخليفة نزل النهر للسباحة، فأدركه التعب فكاد يغرق ويجرفه التيار، ولما كان الخليفة وحده، فقد صرخ طالبًا النجدة من الأشاوس أولاد الحلال، وهرع لنجدته فلاح طيب كان موجودًا في أرضه المحاذية لشاطئ النهر، خلع الرجل الشهم هدومه وقفز إلى النهر واستطاع إنقاذ الخليفة وجرَّه إلى البر، ووقف الخليفة على البر عريانًا بلبوصًا؛ يرتعش من شدة البرد، ويبكي من شدة الخوف، وراح الفلاح البائس الغلبان يواسيه ويطيب خاطره، وعندما حدَّق في وجهه اكتشف أنه الخليفة، فقال له: أنت الخليفة؟ حمدًا لله على سلامتك يا مولاي.

قال الخليفة للفلاح: نعم أنا الخليفة وأشكرك بشدة، وسأصلك بجائزة تعينك على الشيخوخة وتقيك غدر الزمان، فقط انتظر حتى أرتدي هدومي وأصلح من شأني وأضع عمامة الملك على رأسي، ثم أدبر لك أمرك مما يجعلك آخر أمان وطمان. فلما ارتدى الخليفة هدومه، ووضع عمامة الحكم على جبينه؛ استل سيفه وقطع رقبة الفلاح الغلبان الذي أنقذه من الغرق ونجَّاه من الموت.

قالت: هذه قصة فردية، وهذا الخليفة مجنون بدون شك، وهذا الفلاح سيئ الحظ.

قلت: هذا هو التفسير الفرنسي للتاريخ، أما التفسير الحميري، وهو الأصدق، فيقول: إن كل الحمير يسلكون سلوك الخليفة، ويا ويل من يراهم في موقف ضعف أو يضبطهم في وضعٍ ذليل أو مُهين! سيضربونه بالأحاذي (جمع حذاء) حتى ولو كان قد عرَّض نفسه للموت من أجلهم، أو باع عياله لإكرامهم، فالأشاوس يكرهون أن يراهم أحد في حالة بعيدة عن الأَشْوَسة، فهم يحبون الظهور دائمًا متأشوسين ومتنشِّمين؛ بينما العالم كله ركش؛ ولذلك فوضع طبيعي أن يلقى كل من عاون أو ساعد أو ساهم في نصرة الحمير المستضعفين، طبيعي جدًّا أن يلقى الإهانة إذا ما ذهب في زيارة أو في جولة أو في رحلة إلى بلاد الإخوة الذين كانوا أشاوس، ثم هجم عليهم حمير آخرون أكثر أَشْوَسة. إنها مسألة معقدة صحيح، ولكن هذا هو سِلْو أهل العصر الحميري، ومهما حاولنا إفهامك حقيقة أحوالنا فإنك لم تفهمي؛ لأنك لكي تفهمي لا بد أن تكوني حمارة من صلب حمير.

قالت البنت الفرنساوية متحدية: وعلى فرض أنهم سيقتلونني ويمزقونني ويشربون من دمي، فهل سيحدث ذلك في أول يوم من زيارتي للعصر الحميري؟

ولم تنتظر البنت جوابًا ولكنها أجابت بنفسها قائلةً: إذا حدث لي ما تحذرني منه فسيكون ذلك بعد شهر من زيارتي، وربما بعد شهرين، وربما بعد أسبوعين، وسيكون هذا وقتًا كافيًا أدوِّن فيه ملاحظاتي ومشاهداتي وتحليلاتي. وهذا الذي سأدونه سيفتح الطريق أمام العلماء والباحثين لفهم العصر الحميري والغوص في أعماقه، وحتى لو مت بعد ذلك فسأدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ولن يُذكر العصر الحميري إلا ويذكروني قبله، ولن يكون للعصر الحميري أي ذكر إلا إذا جاء ذكري معه.

قلت للبنت الفرنساوية: خيبتك يا خواجاية أنك تحسبين الأمور بمقياس عصرك، ولكن الأمور في العصر الحميري تجري بلا مقياس، خيبتنا الحقيقية في العصر الحميري أننا بلا مقياس، وبلا حدود، وبلا ضابط، وبلا رابط، ندخل معركة لا نطلق فيها أي طلقة ونسميها أم المعارك، ندوخ دوخة الأرملة ثم نعلن أننا كنا على موعد مع القدر، ترتفع الأسعار كل يوم في بلادنا لتصل إلى أرقام فلكية، ثم نعلن أننا دخلنا في عام الرخاء، نأكل ضربًا لا يأكله حرامي في مولد، ونصدر عُملة عليها علامة الانتصار، تقوم مظاهرة في مدينة صغيرة فنضربها بمدافع الميدان، ثم نتهم المشتركين فيها بالخيانة، ونؤكد أن كل فرد في المظاهرة حصل على عدة ملايين من الدولارات، مع أن أغلب المشتركين في المظاهرة ينامون من غير عشاء، وأغلبهم كان يهرش في جسده أثناء المظاهرة من وخز الدمامل وتقيُّح الجروح، وأي معارض لنا نتهمه بالخيانة، وكل من يخالفنا الرأي جاسوس، وكل

من ليس معنا فهو ضدنا، وليس في الدنيا أصوب من أحكامنا، ولا أحكم من قراراتنا، ولا أشرف من أخلاقنا، ولا أطهر من أرومتنا، وصنفنا خُلق للريادة والسيادة، وحنًّا للضيف، وحنًّا للسيف، وشاعرنا هو الذي قال:

إذا الملك الجبار صعَّر خدَّه مشينا إليه بالسيوف نُعاتبه

وقال آخر:

ونشرب إن وردنا الماء صفوًا ويشرب غيرنا كدرًا وطينا!

كلام وطق حنك ودردشة ورغي عمَّال على بطَّال، لا أحد يستطيع أن يعرف جِدَّنا من هزلنا؛ فنحن نجِدُّ في ساعة الهزل، ونهزل في ساعة الجد. مأساتنا أعمق من مأساة أبناء كاليوني؛ وهي المأساة التي حددها كاليوني نفسُه حين قال ... مأساة أولادي أنهم يتكلمون حين يجب أن ينصتوا، وينصتون حين يجب أن يتكلموا. مأساتنا أعمق من مأساة أولاد كاليوني؛ لأن الحمير تبعنا يحاربون حين يجب أن يتفاوضوا، ويتفاوضون حين يجب أن يقاتلوا، إنها سمة حياتنا، وعلامة على جنسنا، نحكم بالحديد والنار ونصدر المجلدات في فوائد الديمقراطية، ننشئ مجالس نيابية ونمنع أعضاءها من الكلام أو المناقشة، فإن تكلموا أو تناقشوا، قدمناهم لمحكمة العيب أو مجلس قيادة الثورة أو اللجان الشعبية، فالأسماء عندنا لا تعني شيئًا، وأبلغ دليل على عبقريتنا أن لدينا مؤسسات متشابهة وأسماء مختلفة، وعندنا في العصر الحميري نظام واحد وشعارات مختلفة، ويتصور الخواجات أمثالكم أن لدينا في العصر الحميري نظمًا تقدمية ونظمًا رجعية، مع أنه لا يوجد على وجه الأرض ما هو أسوأ من النظم الرجعية في بلادنا إلا النظم التقدمية؛ ولذلك إذا ذهبتِ وحدك يا خواجاية إلى العصر الحميري، فلن تفهمي شيئًا ولن تخرجي بشيء، ولن تذهبي إلى هناك مع أحد أقربائي أو أحد أصدقائي؛ لأنني أقسمت بسيدي الطرطوشي أنك لو فعلت ذلك لأقتلك وأشرب من دمك، لا مناص إلا بالذهاب معي، وستذهبين معي بإذن الله ورغم أنفك، وسنطوف بالعصر الحميري كما نشاء وفي الوقت الذي نريده، ولكن سنختار الوقت المناسب عندما تهدأ الأمور، وتطيب النفوس، ويضيع الأثر السيئ الذي تركته عاصفة الصحراء في حربها مع أم المعارك.

قالت البنت الفرنساوية وقد بدأت تنصت وتفهم أيضًا: ومتى يكون ذلك يا حماري العزيز؟

قلت: في الجزء الثاني بإذن ربي، وأعدك يا خواجاية بأن نتجول في العصر الحميري كعَّابي وعلى مهلنا وبراحتنا، ومن طنجة إلى صنعاء.

قالت البنت الخواجاية وقد بدا عليها الاقتناع: آه يا حماري العزيز ... غلبت ولم يغلب حماري، وسأصبر وأنتظر، وأرجو أن يصل العصر الحميري قريبًا إلى حالته الطبيعية؛ لكي نتمكن من التجوال معًا ... من طنجة إلى الشارقة، ومن عطبرة إلى القنطرة، ومن الكوفة إلى الشلوفة، ومن تونس إلى خان يونس، ومن اليمامة إلى وادي سلامة؛ لنشاهد كل شبر في العصر الحميري، ونلمس كل حجر في العصر الحميري، ونتكلم مع أكبر عدد من الحمير من أبناء العصر الحميري؛ هذا وعدٌ عليَّ ومكتوب أيضًا ... وبإذن واحد أحد سنجوب العصر الحميري معًا في يوم في شهر في سنة ... قولي إن شاء الله ... قوليها ولو بالفرنساوي ... فالسماء مفتوحة تقبل كل الدعوات بكل اللغات!

وإلى اللقاء في الجزء الثاني بإذن واحد أحد.

مارس ١٩٩١م

هنـــداوي